ديوان
أبي إسحاق الإلبيري الأندلسي

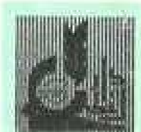
(المتوفى نحو ٤٦٠ هـ)

حققه وشرحه واستدرك فائته

الدكتور

محمد رضوان الداية





دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

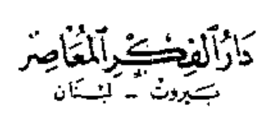


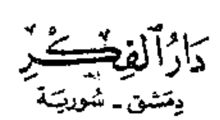
ديوان
أبي إسحاق الإلبيري الأندلسي

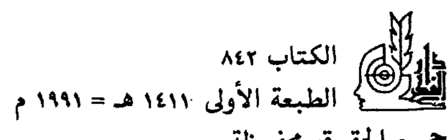
ديوان
أبي إسحاق الإلبيري الأندلسي

(المتوفى نحو ٤٦٠ هـ)

حققه وشرحه واستدرك فائته
الدكتور
محمد رضوان الداية





الكتاب ٨٤٢

الطبعة الأولى ١٤١١ هـ = ١٩٩١ م

سورية ـ **دمشق** ـ برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد ـ ص.ب (٩٦٢)

برقياً: فكر ـ س.ت ٢٧٥٤ هاتف ٢٣٩٧١٧، ٢١١١٦٦ ـ تلكس FKR 411745 Sy

بسم الله الرحمن الرحيم

في التّراث الأندلسي الشعري الباقي ديوان أبي إسحاق الإلبيري أحد أعلام القرن الهجري الخامس[☆] . ويُبْرِزُ هذا الديوان لوناً من الشعر كان له شأن في هذه المدّة وهو الدّعوة إلى الزُّهد في ملذّات الدُّنيا التي جذبت الأفئدة وغيَّرت السلوك الإنساني ، ثمّ إنّ الشاعر شارك في الدَّعوة إلى الإصلاح السِّياسي وإلى الجهاد في العَدُوّ . لقد كان رجل عِلمٍ وعَمل ، ورجل قول وفِعل . ونصب من نفسِه مثالاً أدار حوله كثيراً من أشعاره .

ويعدّ شعر الإلبيري وسلوكه الوجه الآخر للحياة في الأندلس في هذه الْمُدَّة : فلم تكن حياة النّاس كلها حياة ترف وبذخ وانسياق وراء ملذّات الجسَد وأهوائه ؛ لقد وُجدت الأصوات التي تُنادي بالاعتدال ، وتدعو إلى معادلة كِفَّة الحياة ، ووجدت

(☆) ترجمة أبي إسحاق الإلبيري في : التكملة (لابن الأبّار ١ : ١٣٦ ، وبغية الملتمس ٢١٠ (رقم التّرجمة ٥٢٠) ، وترتيب المدارك للقاضي عياض : ٨٢٨ ، والْمُغرب لابن سعيد : ٢ : ١٢٢ ، والروض المعطار (إلبيرة) ،
ومواضع متفرقة من : الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين ، ونفح الطيب للمقّري ، وأعمال الأعلام (أخبار دولة بني زيري) .
ويُنظر ما في فهرسة ابن عطية ، وفهرسة ابن خير ، وبرنامج الوادي آشي ، وأخبار وتراجم أندلسية : ١٣٥ ،
ومّا فُقد من تراجمه في الكتب المطبوعة ما في : صلة الصّلة لابن الزبير (أخلّ به القسم المطبوع) ، وسقطت ترجمته من نسخة الإحاطة المطبوعة . وغفل عنه صاحب الذّخيرة .
واهتم بالإلبيري مؤرخو الأدب مثل بلانثيا في : تاريخ الفكر الأندلسي و إ . غ . غومث في مقدمته لطبعة الديوان ، والدكتور إحسان عباس في عصر الطوائف والمرابطين ، والدكتور عمر فروخ في تاريخ الأدب العربي ، والزركلي في الأعلام .
وأجريت ذكره في كتابي : بحوث الأدب الأندلسي ، والأدب العربي في الأندلس والمغرب ، وخصصته بدراسة مستقلة (أبو إسحاق الإلبيري : زاهد الأندلس الثائر) .

الأمثلة الحيّة من أهل العِلم والفقه ، ومن المتطوعين للجهاد والمُجاهدة ، ومن الّذين نبذوا الدُّنيا ـ كما كانت حالُها آنذاك ـ وراء ظهورهم ونظروا إلى الآخرة ، وسَعَوْا لها سَعْيَها .

ومن هنا اهتممت بديوان الإلبيري وأعدتُ النَّظر فيه ، وقدَّمته إلى قراء التراث العربي ، ومحبّي التراث الأندلسي والمغربي خاصة .

والحمد لله ربِّ العالمين

دوما ـ دمشق الشام في محرّم الحرام ١٤١١
آب ١٩٩٠

أ . د محمد رضوان الدّاية

حياة الشاعر وعصره

الشاعر صاحب الديوان هو : أبو إسحاق إبراهيم بن مَسعو بن سَعْد التُّجيبي واشْتهر بالنَّسبة إلى مدينة إلبيرة ، فقيل فيه : أبو إسحاق الإلب ي ونَسَبته كُتب التراجم إلى كلّ من : إلبيرة ، وغَرناطة ، وحِصن العُقاب . و[illegible] الأمر أنّ أبا إسحاق من أُهل حصن العقاب ؛ ويقال فيه رِباط العُقاب فيه وُلِدَ ونشأ ثم قصد إلى المدينة الكبيرة المجاورة ، حاضِرَة الكُورة ، أعني (إلبيرة) فتلقّى مزيداً من علومه وثقافته فيها ، واستقرّ فيها إلى أن أُخليت المدينة وانتقل أهلُها إلى مدينة غرناطة . فهو إذن من العُقاب (الحِصن أو الرّباط) ثم هو نزيل إلبيرة ؛ وساكنُ غَرْناطة ؛ ومن هنا قولُ الشاعر في قصيدته الطَّنَّانة في التَّحريض على ابن النّغريلة ورهطه : (القصيدة [٢٥] من هذا الديوان)

وإنّي احتَلَلْتَ بغرناطةٍ	فكنت أراهم بها عابثينْ
وقد قسموها وأعمالَها	فمنهم بكلٍّ مكان لعينْ
فصارتْ حوائجنا عنده	ونحنُ على بابه قائمونْ !

فقوله : « احتللْتُ بِغَرناطة » أي نزلتُ بها ، وسكنتُ ، واتّخذتُها دارَ إقامة .

ونستخرج من أخبار أبي إسحاق ، وهي قليلة ، أنّه وُلد في حصن العقاب ؛ ونشأ فيها نشأته الأولى . ثم خَرج إلى إلْبِيْرَة ، وما ندري أخَرجَ في طلب العلم في فتوته المبكّرة ليكون في رعاية بعض أقاربه في إلبيرة أم كان خروجه مع أهله إليها في نقلة شاملة ، لسببٍ من الأسباب . وفي هذه الحاضرة استقرّ ، واستزاد من علومه ولقي الشُّيوخ وروى عنهم وتبحّر في العُلوم الشّرعيّة : واشتهر بالفقه والقراءات القرآنيّة .

وكانت نُقلته إلى غَرناطة فرصة أخرى للقاء العُلماء ، ولاتخاذ مكانةٍ بين الفُقَهاء ، وطلبة العلم . وقد عرَفنا من شيوخه : محمّد بن عبد الله بن أبي زَمْنِين المتوفّى سنة ٣٩٩ ؛ وكان من رؤوس فقهاء زمانه .

وفي نَسَبِ أبي إسحاق الإلبيري أنّه تُجيبي ، من اليَمن من (تُجيب) . وقد ذكر ابن حزم في جمهرة أنساب العرب أنّ ديار تجيب بالأندلس في سَرَقُسْطة ودَرَوْقَة وقلعة أيُّوب . يعني : غالِبيّتهم ومُعظم جماعتهم . ووجَدْتُ في المنسوبين إلى إلبيرة مَنْ هو من تُجيب . فكأنّ جماعة قليلة من هذه القبيلة سكنت كُورة إلبيرة ، أو نزحت إليها من الشمال (ينظر جمهرة ابن حزم ٤٣٠ ، وصلة الصّلة : ٤٦) .

ولد أبو إسحاق نحو سنة ٣٧٥ ، وهو من تلاميذ ابن أبي زمنين المتوفّى سنة ٣٩٩ ، وكان في هذه المدّة في جملة الفقهاء (الشبّان) يروي عن العلماء ، ويأخذ طريقه إلى ممارسة الإقراء والتدريس والرواية والتّعليم .

ولئن عرفنا من تلامذة أبي إسحاق ـ ومريديه ـ عدداً من الأسماء لقد غاب عنّا أَسماء شيوخه إلاّ من ورد ذكره عَرَضاً . ولكنه ـ لاشكّ ـ لقي من العلماء الكبار في عصرٍ ناهضٍ من الناحية العلمية والحضاريّة ، وفي ظلال الحركة الفكرية العظيمة التي سعى لها بنو أمية عامة ؛ وعبد الرحمن الناصر لدين الله (ت ٣٥٠) وابنه الحكم المستنصر (ت ٣٦٨) خاصّة .

وفي هذه المُدّة التي عاصرها أبو إسحاق الإلبيري ظهرت شخصيات كبيرة مؤثّرة في الحياة الفكرية : العلمية والأدبيّة والفنية في الأندلس مثل ابن حزم الفقيه الظّاهري المعروف (ت ٤٥٦) وابن زيدون (ت ٤٦١) وابن شُهيد (ت ٤٢٦ هـ) .

وظاهر أن أبا إسحاق ، انتقل إلى إلبيرة ، فاستوطنها إلى أن أدركها الخراب ، ثم سكن غرناطة .

وفي إلبيرة تكوّنت شخصية أبي إسحاق ، وظهر بين أصحابه وأقرانه ونشر فيهم أوائل شعره ؛ وصار معروفاً لديهم بالشعر كمعرفتهم إياه فقيهاً متميّزاً بينهم . ومن يَقرأ قصيدته في رثاء إلبيرة يتنبّه إلى درجة تعلقه بهذه المدينة ومعرفته بها ، وارتباطه نفسياً بذكرياتها وآثارها وأهلها . وفي هذه القصيدة (برقم [٢٠] في الديوان) يقول :

وكم بُلغت فيها الأماني وقُضِّيتْ ... لِصَبٍّ لبانـاتٌ بها ومـآربُ

لَعَهْدي بها مبيضّة الليل فاغتدتْ ... وأيّامُها قد سَوّدتها النّوائبُ

وينقضي زمانٌ على إقامته في غرناطة حتى نعرف أنّه عمل كاتباً لدى القاضي أبي الْحَسن عليّ بن توبة . وكان هذا القاضي قد تولى العمل لباديس بن حَبُّوس الزيري صاحب غرناطة إثر توليه السُّلطة بعد أبيه سنة ٤٢٩ . ونعرف أيضاً أن أبا إسحاق رافق ابن توبة في رحلة سفارية إلى مدينة الْمَرِيّة في تلك السَّنة نفسها ، قصد فيها إلى بلاط زُهَير العامِريّ ، ولقي ـ مع ابن توبة ـ أيضاً كاتِبَ زهير : أَبا جَعفر أحمد بن عَبَّاس بن أبي زكريّا الأَنصاري .

طالت مُدّة ولاية ابن توبة على القضاء ، فقد اشتهر منبر مسجد غرناطة الذي أشرف على صنعته سنة ٤٤٧ ؛ وإليه تُنسب قنطرة القاضي التي أقيمت على نهر حَدَرُّو الذي يقطع مدينة غرناطة ، ويخرج عنها . « وما تزال أطلال هذه القنطرة باقية إلى اليوم وتحمل الاسم نفسه » . وكان ابن توبة حَيّاً سنة ٤٥٠ .

وكانت علاقة الإلبيري بهذا القاضي وثيقة ، وكان به مُعْجَباً . ولكي نُنصف أَبا إسحاق الإلبيري نذكر ما وُصِفَ به ابن توبة في تراجمه ، فقد قيل فيه إنه كان من قُضاة العَدْل ، ومن العُلَماء الجِلّة الفُقهاء . ومن هنا ، ومع أسباب الإلف والْمَودّة ، مدح أَبو إسحاق هذا القاضي ، وأثنى عليه ، ودافع عنه . وما قاله فيه يعدّ نوعاً من الالتزام بمواقفه على جهة العُموم .

ولا نعرِفُ لأَبي إسحاق مَدْحاً في رجلٍ آخر في ديوانه ، أو أخباره .

وفي هذه الْمُدّة ـ في أثناء إقامته بغرناطة ـ كَثُر أصحابه ، وتلامذتـه ، وقرّاء شعره والمستمعون إليه . وكان بعض شعره يُنشـد ويُحْتَفل بـه ، كما كان شعره كلـه ممّا يتـابعـه النَّاس و يعجبون به .

ونقرأ في فهرسـة ابن خير (٤١٨) أنـه يروي قصيـدة بـديعـة في الـزُّهـد بـائيّـة لأبي إسحاق إبراهيم بن مسعود الإلبيري رحمـه الله ، قـال : « حـدّثني بهـا الشيخ الفقيـه أبو القـاسم خلف بن هشـام بن حسّـان الأموي الأشبـوني رحمـه الله ، قراءة منّي عليـه بمدينة شِلب حرسها الله قـال : حـدّثني بهـا الأستـاذ أبو بكر محمـد بن حسين بن عبـادة البطليوسي رحمه الله قراءة عليه ، قال : قرأتُها على الشيخ الزاهد أبي عبـد الله محمـد بن خميس اليابري ، قال : قرأتُها على ابن أُخت قائلها ، عن خاله رحمه الله » .

وعبارة « قصيدة بديعة في الزهد بـائيـة » صَوابُهـا : تـائيـة . وتكون الإشـارة إلى القصيدة الأُولى في الدّيوان . وقد نبّه إلى ذلك ابن الأبار في التكلمة (٣٠٢/١) وسماهـا : تائية .

وفي أسماء أصحاب أبي إسحاق ، ومريـديـه ، أبو محمـد عبـد الواحـد بن عيسى بن سليمان الهمداني ، وكان فقيهاً جليلاً ، حافظـاً للفروع ، حـاز ريـاسـة الفقـه والشورى ببلـده (غرنـاطـة) وبـه تفقـه أكثر أهلـه (أي أهل بلـده) واشتهر ذكره وعـلا صيتـه (ت ٥٠٤) .

وفيهم أبو حفص عمر بن خلف بن محمد الْهَمْـداني المعروف بـابن قبلال (ت ٥٠٢) وكان فقيهاً زاهداً فاضلاً مُجابَ الدَّعوة ؛ ولي الصلاة بجامع غرناطة إلى أن مات بها .

وفيهم حفيده الذي سبقت الإشارة إليه .

وفيهم مِمّن روى عنـه قراءةً معتمـدة من القراءات القرآنيـة (برنـامـج الـوادي آشي : ١٨٣) أبو محمد بن العسّال الطُّليطلي ، ذكره ابن الأبار في ترجمة أبي إسحاق وقال فيـه : « وسلـك مسلكـه أبو محمـد بن العسّـال الطليطلي ؛ وكانـا فرسي رهـان في ذلـك

الزمـان صـلاحـاً وعبـادةً » وكأنـه عنى السَّير على منهجـه في الـزُّهـد والعبـادة والمسلـك الاجتماعي أيضاً .

وقـد اشترك ابن العسّـال مـع أبي إسحـاق في التّنبيـه على الْمُشكـلات الاجتماعيّـة الطارئة ، المسيطرة ، التي أدّت إلى التقاعس والخمول والتّضييع ، وفي الـدّعوة إلى الجهـاد ومحاربة العدوّ بلا هوادة ، وفي الدعوة إلى رفع الظلم عن النـاس ، وفي الـدَّعوة العـارمـة إلى الزُّهد ؛ وإنما يقصد الشاعر الفقيه الزاهـد أوّلاً إلى تلطيف سلوك النـاس الْمُنـدفعين إلى ملاذ الحياة وشواغلها وبهرجها والإشراف عليهـا في وقتٍ يتطلّب التقشّف ، والجهـاد والْمُجاهَدة ، والجِدّ .

أدرك الإلبيري من العُهود السّياسية ثلاثـة ، وفي كل عهـد أمراء ورؤسـاء وظروف مختلفة :

ـ فقد أدرك دولة العامريّين بالأندلس ؛ أعني مدّة تسلّط محمد بن أبي عامر المتلقّب بالحاجب المنصور ، ومدّة ابْنَيه بعده .

ـ وأدرك مدّة الفتنة حين نهض بنو أميّة لاسترداد ماسلبهم إيـاه ابنُ عـامر وأولاده من السُّلطة والقيام بشؤون النـاس . وهي فترة امتـدت من سنـة ٤٠٠ إلى ٤٢٢ ، وكانت مضطربة ، ظهرت معهـا أوليـات دول الطوائف التي اقتسمت الجسـد الأنـدلسي الأموي الواحد . وكان ابنُ أبي عامر في مـدّتـه الطويلـة قـد أضعف العصبيـة الأمويّـة خـاصـة والعصبية العربية عامّة . وكانت ثمرة ذلك مُرّة .

ـ وعاصَر مُدّة دول الطّوائف ؛ ومات في أثنائها نحو سنة ٤٦٠ قبل انهيـار الأنـدلس الكبير بسقوط طُلَيْطِلَة سنة ٤٧٨ هـ .

١ ـ حكم المنصـور ابن أبي عـامر نحـواً من ٢٥ سنـة ، كان الحـاجب (والحـاجب في الأندلس بمنزلة الوزير في المشرق) وكان الحـاكم الفعلي ؛ وكان الخليفـة آنـذاك هشـام بن

الحكم ولم يكن له غير الرّسم من الخطابة والنّقد ، والطاعـة الاسميـة . وحكم بعـد المنصور ابنه عبد الملك (تلقّب بالمظفر) وكان في حكمـة أبيـه ودهـائـه (٣٩٢ ـ ٣٩٩) ثم جـاء ابن المنصور الآخر : عبد الرحمن الملقب بِشَنْجُوْل (كان حفيد شانجُه ملك نبارّة) وكان أحمق أهوج ، حَمَل الخليفة الأموي على أن يجعل الخلافة فيه بعده .

٢ ـ تطورت الأحداث وحاول بنو أُميّة أن يعيدوا الملك فيهم على الحقيقـة ولكنهم أخفقوا واحداً بعد واحد لظروف كثيرة منها غياب العصبيـة العربيـة التي كانت حمـايـة لهم ، وتدخُّل البربر الذين وفدوا من إفريقية على الأنـدلس أيـام المنصور العـامري ، ثم تَـدخَّلوا في ترجيح كفـة بعض الطـامحين إلى الخلافـة أو السُّلطـة إلى عوامل أخر يطول الوقوف عندها .

وكانت مُدّة الفتنة هذه نكدة صعبة عسيرة لاقى منها النّاس شرّاً مُستطيراً . خربت معها الزّهراء والزّاهرة وتشوّهت معالم قرطبة ، وتغيّرت الموازين السياسيـة وتبـدّلت قيمٌ اجتماعية كثيرة ، وانهمك النّـاس في أمور كانوا لا يُوغلون فيهـا ، وشغلتهم الـدُّنيـا : بين تـوفير أدنى المطـالب في هـذه الظروف ، والانغماس فيهـا عنـد القـادرين وعنـد أثريـاء المرحلة !

٣ ـ وجلا عصرُ الفِتنـة عن سقوط دولـة بني أُميـة ذات العزّ العظيم والمجـد الغـابر ، وظهور عدد كبير من الـدويلات ـ تكبُر وتصغُر ـ عُرِفت في التـاريخ بـاسم دول الفِرَق أو دول الطّوائف .

وكانت هذه المدّة من أشدّ عصور الأندلس غرابةً ؛ فقد :

ـ ضَعُفت فيهـا الأُمّـة عن مـواجهـة عـدوّهـا ، وصـارت تتهـاوى عنـد رغبـاتـه وتنحني لمطالبه ؛

ـ وانتثر عقد الدولة الواحدة ، دولة الأمويّين ، وصـارت البلاد دويلات هزيلـة تختلف

على العظائم وعلى الصَّغائر ، وتمسّح بأعتاب العدوّ لِيُزْهِقَ بعضهم بعضاً ، وليكون هذا في مصلحة ذلك العدو ؛

- وأرهق ملوك الطوائف الناس لتتحقّق لهم رغباتُهم وأهواؤهم من جهة ، وليقدّموا ثمن سكوت ملك قشتالة وغيره - من ملوك الدول الشمالية المعادية - من جهة أُخرى ؛
- وانغمس أولئك الحكّام - إلا القلة القليلة - في حياة بذخ وترف لا تُطيقها الرعية ولا تسمحُ بها ظروف البلاد والعباد ؛
- وأضاع معظم السياسيّين والعسكريّين رَسْمَ الجِهاد ، وذهبت أيّامُ العِزّ ، وصارت كلمة الأندلسيّين هي السُّفلى ، واستكلب العدوّ الذي كان قبل سنين قليلة مُستخذياً ضعيفاً ؛
- وبدأ التراجع العربي الإسلامي عن أرض الأندلس . ويكفي أن نذكر سقوط طُلَيطلة في يد ألفونسو السادس ملك قشتالة سنة ٤٧٨ ؛
- وأسْهَم الحُكّام الجُدد - وأكثرهم لا يصلح لسياسة ولا لرياسة - في إفساد الذوق العام ، وفي غلبة الأهواء الشخصية ، والركون إلى النفاق السياسي ، والانغماس في الملذّات الآنيّة من مثل :

• الرَّغبة العارمة في جمع المال وحيازة العقار ؛
• والتأنق الفائق في المأكل والمشرب والملبس والمسكن ؛
• والانغماس في ملذات الجسَد .

وقد بَيّن ابن حَزْم معاصر أبي إسحاق الإلبيري مفاسد هذه الْمُدّة ، ومفاسد حُكّامها وأخطاءهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية (رسائل ابن حزم ٣٢/٣ - ٣٣) .

كان زاوي بن زيري زعيماً من زعماء صنهاجة ؛ وجَدّت معه ظروفٌ يطول شرحُها دعته إلى مغادرة إفريقية والانحياز إلى جانب المنصور بن أبي عامر في الأندلس . وبعد فتنة شنجول بن المنصور واضطراب الأمور في الأندلس خرج زاوي عن قرطبة ؛ وسمع

إلى فئة من كبار أهل إلبيرة للسكنى بفئته معهم وحماية البلد من اضطرام الفتنة . وهكذا نزل زاوي إلبيرة وصار أميراً عليها .

وما لبث أن اختار موقع غرناطة وكانت قرية صغيرة لتكون الحاضرة ، فموقعها مكين ، ويسهل الدفاع عنه . وغادر أهل إلبيرة مدينتهم إلى غرناطة فعمرت هذه وخربت تلك . وكان هذا سنة ٤٠١ .

وفي خبر آخر يترك زاوي الأندلس ويغادر إلى إفريقية ، ويحلّ محلّه في رياسة غرناطة وما صار تحت نظره من المنطقة : حَبُّوس بن ماكْسِن . وكان هذا سنة ٤١٦ .

واستمر حبوس إلى سنة ٤٢٩ حيث تولى الحكم : باديس بن حَبُّوس الذي استمر على ولايته حتى ٤٦٩ ؛ ثم تولى حفيده عبد الله بن بلقين بن باديس . وعبد الله هو : الأمير عبد الله الذي أذعن للمرابطين طوعاً . وله كتاب التّبيان : وفيه تسجيل لأحداث زمانه ـ كما رآها وارتآها ـ وفيه ملامح عن شخصه أيضاً .

وفي زمن دولة باديس تولّى أبو إسحاق الإلبيري الكتابة للقاضي أبي الحسن بن توبة مدّة غير قليلة (لا نعرف كم هي تحديداً) . وباديس هو المعنيّ بقصيدته الشهيرة التي على النون : (القصيدة ذات الرقم [٢٥] من الديوان)

ألا قُل لصنهاجةٍ أَجْمَعِين　　　بدور النديّ وأُسد العرين

والتي أسهمت إسهاماً قويّاً في الثّورة على الوزير المتسلّط المتآمر على الأمير نفسه ، وعلى أسرته ، وعلى أهل غرناطة : يوسف بن إسماعيل بن النغريلة .

ولقصيدة أبي إسحاق قصّة ؛ وهي قصّةٌ موصولةٌ بيوسف بن إسماعيل بن النغريلة . ولهذا الوزير اليَهوديّ خبرٌ يطول في دولة باديس بن حَبُّوس الذي أسلم إليه قياد دولته ، حتى ظلم وطغى ، ودعا الناس إلى الثورة عليه والإطاحة به !

كان لِحَبوس كاتب بارع يُعرف بأَبي العَبّاس . وكان لهذا الكاتب ـ الذي له مهمّة

الوزير وصلاحيته ـ كاتب آخر يساعده ويقوم بالشُّؤون الديوانيّة التي يكلفه بها أبو العَبّاس هو إسماعيل بن النغريلة اليهودي . فلما توفّي أبو العَبّاس أقام حَبوس أحد أولاده مكانه ، وكان فتىً غِرّاً قليل المتابعة للأعمال الإدارية ... فمكّن ابن النغريلة لنفسِه ، وطرح الفتى الكاتب وراءه ، وصار هو في مكانة الكاتب الرئيسي (الوزير الذي يدير شؤون الدولة) .

وذكر الأمير عبد الله الأسباب التي دعت جدّه باديس إلى الاستنامة إلى ابن النغريلة ، وقال إنها تتلخّص في أمور : (التبيان : ٣١ ـ ٣٢)

ـ فقد كان كيّساً يحسن فن المُداراة للناس مّما يُناسب ذلك الزّمان ؛
ـ وهو يهوديّ لا تطمح نفسه إلى الولاية والانقضاض على صاحب الدولة ؛
ـ وهو ليس من الأندلسيّين فيخشى باديس منه أن يتفق مع سلطان من ملوك الطوائف ؛
ـ وهو قادر على الجباية ، وخصوصاً من بني جلدته .

وهذه الأسباب ـ وإن كانت تسوّغ صنيع باديس بمعايير سياسيّة خاصّة به ـ هي أسباب واهية ؛ وتجرّع الناس تسلط ابن النغريلة وتمكينه لقومه تدريجاً بصعوبة بالغة .

فلما مات خلفه ابن له يدعى يوسف . وكان يوسف أقلّ من أبيه في الدهاء والمكر والقُدرة على المُداراة . فقد وُصف الأب بالبراعة في الوصول إلى ما يريد والكياسة في التعامل مع النّاس ـ ولو ظاهراً ـ ولكنه من جهة ثانية مكّن لليهود في المناصب المالية والإدارية ، وجعل لهم صولة وجولة . وكان لابن حزم مناقشة معه ، ولم يثبت ابن النغريلة (الأب) عندها ؛ وانكشف عُواره .

أمّا يوسف بن إسماعيل فكان إلى طغيانه ، وتأريشه ، وتآمره على بيت باديس مُظاهراً بحاله ، مُتورّطاً في الخوض في مسائل الإسلام ؛ وله كتابٌ تورّط فيه يوسف في

الكلام في مسائل إسلامية ، تصدّى له عدد من العلماء فردّوا عليه وبيّنوا ضعفه وتهافته ؛ وفيهم الإمام ابن حزم في كتابه المطبوع : **الردّ على ابن النغريلة** (تنظر الطبعة الثانية بتحقيق الدكتور إحسان عباس في أول الجزء الثالث من مجموع رسائل ابن حزم) . وقد كشف ابن حزم عن جهلِ ابن النّغريلة وتطاوله وطُغيانه .

وتابع يُوسف دسائس أبيه السّرّية ، ولكنّه - لِبَطَرٍ فيه وأشر - تورّط في قَتل بُلُقّين بن باديس وألصق التهمة بعدد من رجال الحاشية ؛ (قتله مسموماً سنة ٤٥٦) . وتورط أيضاً في مؤامرة عقدها مع المعتصم بن صُمادح صاحب الْمَرِيّة سنة ٤٥٩ ، وكادت المؤامرة تتمّ لولا عيون خصوم يوسف بن النغريلة - وهم كُثر - وهياج الشعب ضدّه ؛ وكان على رأس الناقمين على تسلط هذا الوزير السيّء : الفقيه الأديب أبو إسحاق الإلبيري ، وفعلت قصيدته في الناس فعل النار في الهشيم وردّدتها الألسنة ؛ قال لسان الدين بن الخطيب (أعمال الأعلام - قسم الأندلس : ٢٣١) : وحُفظت القصيدة المنسوبة إلى المولى العابد أبي إسحاق الإلبيري رضي الله عنه التي يقول فيها مخاطباً باديس ومحرّضاً على اليهودي (ورواية الشعر هنا له) :

ألا قل لصنهاجة أجمعين ... بدور الزمان وأسد العرين
مقالة ذي مقةٍ مشفق ... يعدّ النصيحة زلفى ودين
لقد زل سيّدكم زلّةً ... تقرّ بها أعينُ الشامتين

وانتهى أمر يوسف بأن قتلته العامة في ثورتها العارمة ، وتخلص الناس من مكايده ، وفساده ، وتخريبه . وكان ذلك سنة ٤٥٩ (قال لسان الدين : وقيل سنة ٤٦٥) .

وفي ديوان الإلبيري قطعة أنشدها في حصن العُقاب ؛ يقول فيها :

ألفْت العُقاب حذار العقاب ... وعفتُ الموارد خوف الذئاب

ويرجح أنه قالها في المدّة التي نفي فيها عن إلبيرة ؛ نفاه الأمير باديس بتحريض من وزيره ابن النغريلة . وواضح أن يوسف بن النغريلة أزعجه من الشيخ الوقور ذي الكلمة المسموعة من الناس أن يحرّض عليه ، ويكشف عواره ، ويدعو الناس إلى الثورة عليه .

وليس لدينا تاريخ معروف لنفي أبي إسحاق ، وأرجح أن يكون بعد وفاة القاضي ابن توبة الذي كان حماية له ولغيره من الفقهاء المتنوّرين . ويَقْوى عندي أن يكون هذا بعد مقتل بلقّين على يد النّغرالي حين اضطرب وساء ظنه بكل أحد يمكن أن يكون من المعارضة المسموعة .

ولا تعيّن كتب التراجم سنة وفاته ، ولكنْ وقع تقديرها في حدود سنة ٤٦ ، قال ابن الأبار في التكملة (١ : ١٣٧) : توفي في نحو الستّين وأربع مئة .

لقد كان أبو إسحاق الإلبيري فقيهاً عالماً ، حذّر وأَنْذَر ودعا الناس إلى نقد الذات والعودة إلى طريق الله تعالى بعيداً عن الإسراف في ملاذ الدُّنيا الزائلة ، ودعا إلى محاربة العدو والوقوف صفّاً واحداً ؛ وكان تركيزه على ذم الدنيا مناسباً للأحوال الاجتماعية في زمان اضطربت المعايير فيه ؛ وانغمس الناس في دنياهم : من كان ذا مال فإنه يطلب المزيد ويُسرف في الشهوات ، ومن قصّرت حاله جعل همه في دنيا يصيبها على أية حال . ومن هنا كان زُهد الإلبيري وتزهيده الناس وذمه للدنيا هو محاولة صارخة لتعديل الكفة المرجوحة مع الأُخرى الراجحة : محاولة للإصلاح الاجتماعي انطلاقاً من النفس ، من داخل الإنسان ووجدانه .

لقد خفيت هذه المقاصد والمعاني عن المستشرق دوزي الذي ناصب الإلبيري العداء وقال فيه كلاماً عجيباً هو إلى الذّم أقرب منه إلى أي درس وبحث .

وخفيت أيضاً عن المستشرق إميليو غارثية غومز ناشر الطبعة الأولى من الديوان . وكان قد قدم للديوان بدراسة ، ترجمها الدكتور : الطاهر أحمد مكي في كتاب (مع

شعراء الأندلس والمتنبي) . وليس من الإنصاف أن يجري الأستاذ غومز مقارنة بين الإلبيري وابن حزم ـ وهما متعاصران ـ فإن لكل واحد منهما أُفقاً مستقلاً . يقول غومز في الإلبيري (ص ١١٧ ـ ١١٨ من الترجمة) :

« ... هكذا تقدّم لنا هذه القصائد صورة فقيه إسباني ـ يريد : أندلسي ـ لآخرين كثيرين لعبوا دوراً مهمّاً في التاريخ الثقافي والسياسي للأندلس الإسلامي كانوا أصحاب الأمر والنّهي خلال الإمارة الأموية ، يلاحقون الذين يحاولون جلب العلوم الشرقية ويضعون أمامهم العراقيل . وكانوا هم الذين أوقفوا تقدّم العلوم في ظل الخلافة وهي في أوج ازدهارها ، وكانوا دمىً يلعب بها المنصور ويحركها فحطموا مكتبة الحكم الثاني الهائلة ، وكانوا أعداء ألدّاء لحضارة ملوك الطوائف البهيجة المصقولة المتحرّرة ... وكانوا هم الذين حاولوا فيما بعد أن يطوّقوا الازدهار الفلسفي العظيم ذا الطابع الهيليني على أيام الموحّدين ... » إلى آخر ما قال ممّا لا يصح تعميمه على هذه الصّورة ، ولا يصح تطبيقه على أبي إسحاق الإلبيري !

على أنه يقول في آخر كلامه (ص ١١٨) :

إن أبا إسحاق الإلبيري ، في نطاق ثقافته ، ومع جفاف قلبه الْمُدَمَّر وشموخه بالعفّة وعناده الذي يُخفي هوّات عديدة (كذا وردت) ومنطقه الثرثار المليء بالقوّة ، وبُغضه للشعراء ، وبقصيدته التي تشتعل توهجاً ضدّ اليهود ، والتي استطاع بها أن يلهب غرناطة ليس بأقل من أي واحد منهم وإنه لجدير بأن يحتلّ مكانه في الصف الأول من الشعراء » .

وهذا ـ وإن أدّى إلى الاعتراف بأبي إسحاق شاعراً متقدّماً ـ يدلّ على ضعفٍ في فهم مسلك الشاعر وموقفه ، وعلى منهج مضطرب في رؤية أحداث الأندلس ومجرياتها ، وفيه متابعة قائمة على الاستهواء لآراء دوزي ، وفيه ميلٌ شديد وازورار عن الفقهاء والزهاد والعُبّاد ؛ وهو ميل يُفسد الرأي ويذهب بالموضوعيّة .

شعر الفقيه الزاهد
أبي إسحاق إبراهيم بن مسعود
الإلبيري رضي الله عنه

صورة غلاف الديوان

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله

قال الفقيه الزاهد أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود الإلبيري رحمه الله عليه

تفت فؤادك الأيام فتا وتنحت جسمك الساعات نحتا
وتدعوك المنون دعاء صدق ألا يا صاح أنت أريد أنتا
أراك تحب عرسا ذات غدر أبت طلاقها الأكياس بتا
تنام الدهر ويحك في غطيط بها حتى إذا مت انتبهتا
فكم ذا أنت مخدوع وحتى متى لا ترعوي عنها وحتى
أبا بكر دعوتك لو أجبتا إلى ما فيه حظك إن عقلتا
إلى علم تكون به إماما مطاعا إن نهيت وإن أمرتا
ويجلو ما بعينك من غشاها ويهديك الطريق إذا ضللتا
وتحمل منه في ناديك تاجا ويكسوك الجمال إذا اغتربتا
ينالك نفعه ما دمت حيا ويبقى ذخره لك إن ذهبتا
هو العضب المهند ليس ينبو تصيب به مقاتل من ضربتا
وكنز لا تخاف عليه لصا خفيف الحمل يوجد حيث كنتا
يزيد بكثرة الإنفاق منه وينقص إن به كفا شددتا
فلو قد ذقت من حلواه طعما لآثرت التعلم واجتهدتا

صورة بداية الديوان

ديوان

أبي إسحاق الإلبيري

الأندلسي

حققه وشرحه واستدرك فائته

الدكتور محمد رضوان الداية

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وآله

[١]

قال الفقيهُ الزَّاهدُ أبو إسحاق إبراهيمُ بنُ مَسعُود الإلبيريّ ، رحمة الله عليه :

[في القصيدة خطاب وعتاب ومحاورة مع مَنْ دعاه (أبا بكر) . وكان هذا الرجل قد ذكر بعض معايب الشاعر ، وبلغه ماقال . وقد جعل الشاعر هذا المُنطلق فرصةً لبسط آرائه في العلم والتقوى والتوبة ونبذ الدنيا ؛ وإشارةً إلى مقالة أبي بكر فيه ، وتجاوزاً لها في الوقت نفسه . واختلط الحديث بين توجيه أبي بكر هذا والحديث عن النفس من منطلق لوم الذات (من التحرّج المستمرّ) وتضخيم الهفوات ، وإعلان الخضوع المطلق لله تعالى .

بدأ الشاعر القصيدة بالكلام على غفلة الإنسان عما تصنعه آلة الزمن في بني آدم (١ ـ ٥) ودعا أبا بكر ـ والخطاب عامّ ـ إلى العلم النافع (٦ ـ ١٠) وبيّن منزلة العلم وحلاوته (١١ ـ ١٩) وأن الإنسان مسؤول عن علمه والعمل به وعن جهله لوجهل (٢٠ ـ ٢٧) وسفّه من يفضل المال ـ وما يلحق به ـ على العِلم (٢٨ ـ ٤٤) وهوّن شأن الدنيا (٤٥ ـ ٥٤) فهي عَرَض فانٍ ، ودعا إلى الجدّ ـ دون الهزل ـ وإلى التّوبة والخضوع لله تعالى (٥٥ ـ ٦٠) وتعجيل التوبة (٦١ ـ ٦٥) وجعل نفسه مثالاً يتحدث عنه (٦٦ ـ ٦٩) وعاد إلى خطاب أبي بكر ، وحَذّر

من الإخلاد إلى الدنيا ومن نسيان الآخرة (٧٠ ـ ٨١) وإلى تذكر يوم الحساب (٨٢ ـ ٨٦) .

وخرج إلى اعتراف عام بالذنوب وسرد لمعايب الإنسان المقصّر (٩٧ ـ ٩٩) وإلى نصائح عامة أخلاقية ، في الحذر من رفاق السّوء وأهل الجهل : ودعا إلى إباء الضيم ، وإلى الضرب في الأرض الواسعة سعيا وراء ذلك] .

[من الوافر]

١	تَفُتُّ فؤادَكَ الأيَّامُ فَتَّا	وتَنْحِتُ جِسمَكَ السَّاعاتُ نَحتا
٢	وتَدْعُوكَ الْمَنُونُ دُعاءَ صِدقٍ:	ألا يا صاحِ: أنتَ أُريدُ، أنْتا !
٣	أراكَ تُحِبُّ عِرْساً ذاتَ غَدرٍ	أَبَتَّ طَلاقَها الأكْياسُ بَتَّا
٤	تنامُ الدَّهرَ وَيحَكَ في غَطيطٍ	بِهَا حَتَّى إذا مِتَّ انتَبَهْتَا
٥	فكَمْ ذا أنتَ مَخدوعٌ وحتَّى	مَتى لاتَرعَوِي عَنها وحَتَّى ؟

---

(٣) العِرْسُ : امرأة الرّجل (وتقال أيضاً لرجل المرأة فهما عرسان) .
ويقال : أَبَتَّ الطلاقَ بَتَّةً وإبتاتا : أوقعه باتّا . أمّا البتُّ فمصدر فعل بتّ ؛ يقال : بَتَّ الطلاقَ أي أوقعه ثلاثاً باتّاً . وفي نهج البلاغة بتحقيق الدكتور صبحي الصالح رحمه الله : « يادنيا ! يادُنيا ! إليكِ عني ؛ أبي تعرّضت ؟ أم إليَّ تَشَوَّفْتِ ؟ لاحان حينك ! هيهات ! غرّي غيري ، لاحاجة لي فيك ؛ قد طلقتك ثلاثاً لارجعة فيها ! » .

(٤) يقال : غطّ النائم غَطّاً وغطيطاً أي : شخر وسُمِعَ له غطيط ، وفي « كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس » (٣١٢/١) عند ذكره الكلام المشهور : (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا) مانصّه : « هو من قول علي بن أبي طالب ؛ لكن عزاه الشعراني في الطبقات لسهل التستري ولفظه في ترجمته ، ومن كلامه : الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا ، وإذا ماتوا ندموا ، وإن ندموا لم تنفعهم ندامتهم » .

(٥) يقال ارعوى عن كذا أي : كفّ وحَسُن رجوعه عنه .

٦	أبـا بكرٍ دَعَـوتُـكَ لـو أجَبتـا	إلى مـافيـهِ حَظُّـكَ إن عَقَلْتـا
٧	إلى عِلْمٍ تكـونُ بـهِ إمـامـاً	مُطـاعـاً إن نَهَيْتَ وإنْ أمَرْتـا
٨	وتَجلو مـا بِعَينِـكَ مِن عَشَـاهـا	وتَهـديـكَ السَّبيـلَ إذا ضَلَلْتـا
٩	وتَحْمِـلُ مِنـهُ في نـادِيكَ تـاجـاً	ويكسُـوكَ الجَمـالَ إذا اغتَرَبْتـا
١٠	يَنـالُـكَ نَفْعُـهُ مـادُمْتَ حَيّـاً	ويَبْقى ذُخرُهُ لـكَ إن ذَهَبتـا
١١	هُـوَ العَضبُ الْمُهَنَّـدُ ليس يَنبُـو	تُصِيبُ بـهِ مَقـاتِـلَ مَنْ ضَرَبتـا
١٢	وكَنزاً لاتَخـافُ عليـهِ لِصّـاً	خَفيفَ الْحَملِ يُوجَدُ حيثُ كُنتا
١٣	يَـزيـدُ بكَثْرَةِ الإنفـاقِ مِنْـهُ	وينقُصُ أن بـهِ كفّـاً شَـدَدْتـا

(٦) (أبو بكر) كنية المخاطب المباشر في القصيدة ، وقد نبّه إليه مرة أخرى في القصيدة (انظر البيت ٨٧ وما قبله وما بعده) ، وجعل الحديث إليه وسيلة لبسط آرائه ومواقفه . ولم نهتدِ إلى المخاطب بهذه الكنية في القصيدة . لم أهتد إليه يقيناً ؛ ولعله أبو بكر بن الحاج المخاطب بالقصيدة [٣١] من هذا الديوان . ويدل البيت ٨٩ هنا على أن أبا بكر قد هجاه .

(٨) العَشا : ضعف البصر . ونذكر هنا بعض قصيدة أبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيريَ الأندلسي (يتيمة الدّهر ١٠٢/٢) :

واعلمْ بـأن العلم أرفـع رتبـة	وأجـلَّ مكتسب وأسنى مفخرِ
فـاسلك سبيـل المقتنين لـه تسـدْ	إن السيـادة تقتنى بـالـدفتر
والعـالم المـدعـوّ حَبْراً إنمـا	سمّاه بـاسم الْحَبْرِ حَمْلُ الْمِحْبَرِ !

وقصيدة عبد الملك هذه من عيونِ شعرِ الحكمة .

(١١) العَضْب : السيف القاطع ، والمهنّد : السيف ؛ وأصل معناه من هَنّد السيف أي شحذه ، أو هو منسوب إلى الهند (المطبوع من حديد الهند) .

(١٢) في شعر الشافعي رضي الله عنه (ديوانه : ١٠٠)

عِلمي معي حيثما يممت كان معي	قَلبي وعـاءٌ لـه لابَطنُ صُنـدوق
إن كنت في البيتِ كان العلمُ فيـه معي	أو كنتُ في السُّوق كان العِلم في السُّوقِ !

(١٣) في الأصل (أن) ، كما هو مثبتٌ ؛ والشرط في الجملة عندي مقبول .

١٤	فلـو قـد ذُقتَ مِن حَلـواهُ طَعماً	لآثَرْتَ التعلُّمَ واجتَهَـدتـا
١٥	ولم يَشغلْـكَ عنـهُ هَـوًى مُطـاعٌ	ولا دُنيـا بِـزُخْرُفِهـا فُتِنْتـا
١٦	ولا ألهـاكَ عَنـهُ أنيـقُ رَوْضٍ	ولا خِـدرٌ بِرَبرَبِـهِ كَلِفْتـا
١٧	فَقُـوتُ الرُّوحِ أرواحُ الْمَعـاني	وليسَ بـأن طَعِمتَ وأن شَرِبتـا
١٨	فَـواظِبْـه وخُـذ بـالْجِـدِّ فيـهِ	فـإنْ أعطـاكَـهُ اللهُ أخَـذتـا
١٩	وإن أُوتِيْتَ فِيـهِ طَـويـلَ بـاعٍ	وقـالَ النّـاسُ إنَّـكَ قـد سَبقتـا
٢٠	فـلا تـأمَنْ سـؤالَ اللهِ عنـهُ	بتـوبيخٍ : عَلِمْتَ فهـل عَمِلْتـا ؟
٢١	فَرأسُ العِلمِ تَقـوى اللهِ حقَّـاً	ولَيسَ بـأن يُقـال : لقـد رَأستـا
٢٢	وضَـافي ثَـوبِـكَ الإحسـانُ لاأن	تُرى ثَـوبَ الإسـاءَةِ قـد لَبِسْتـا

(١٦) الخِدر (بالكسر) ستر يُمدُّ للجارية في البيت ؛ وكلُّ ماواراك من بيت ونحوه . والرَّبرب : القطيع من بقر الوحش . شبّه النساء الجميلات بالبقر الوحشي .

(١٨) في الأساس : وَظَب على الأمر ، وواظب عليه ، وقول الشاعر : (واظِبْـهُ) ـ أي : تعدية الفعل إلى المفعول ـ لم يردْ في كتب اللغة ؛ ولا أعرفه في آثار الأدباء ..

(٢٠) في كشف الخفا (لاتزول قدما ابن ادم يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع : شبابه فيما أبلاه ، وعن عمره فيما أفناه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل به) . رواه الطبراني ورواه الترمذي (٣٧٨/٢) . وفي سنن الدارمي (٨٢/١) عن أبي كبشة السّلولي قال : سمعت أبا الدرداء يقول : إن من أشرّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة عالمٌ لا يُنْتَفَعُ بعلمه .

(٢١) في حديث ابن مسعود رضي الله عنه : رأس الحكمة مخافة الله تعالى (الفتح الكبير : ١٢٢/٢) .

(٢٢) روى ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرّة من كِبر » ، قال رجل : إنّ الرّجل يُحبّ أن يكون ثوبُه حسَناً ونعله حسَناً ! قال : « إنّ الله جميل يحبّ الجمال ؛ الكِبرُ : بَطَرُ الْحَقّ وغَمْطُ النّاس » .

٢٣ إذا مـــالَمْ يُفِــدْكَ العلمُ خَيْراً ... فَخَيْرٌ منــهُ أنْ لــوقَــدْ جَهِلْتــا

٢٤ وإنْ ألقَــاكَ فَهْمُــكَ في مَهــاوٍ ... فليتَـكَ -ثُمَّ لَيْتَـكَ !- مــافَهِمتــا

٢٥ سَتَجْني منْ ثِمارِ العَجْــزِ جَهْــلاً ... وتَصْغُرُ في العُيــونِ إذا كَبُرتــا

٢٦ وتُفقَــدُ إن جهلتَ وأنتَ بــاقٍ ... وتُـوجَـدُ إن عَلِمْتَ وقَدْ فُقِـدْتـا

٢٧ وتَــذكُر قَــوْلَتي لــكَ بعــدَ حِيْنٍ ... وتَغْبِطُهــا إذا عَنْهــا شُغِلتــا

٢٨ لَسَـوف تَعَضُّ من نَــدَمٍ عَلَيْهــا ... ومــا تُغني النَّــدامَــةُ إنْ نَـدِمْتـا

٢٩ إذا أبْصرتَ صَحْبَـــكَ في سَماءٍ ... قـد ارتَفَعوا عَلَيْكَ وقـد سَفَلْتـا

٣٠ فَراجِعْهــا ودَعْ عَنــكَ الْهُــوَيْنى ... فمـا بـالبُـطءِ تُـدْرِكُ مـاطَلَبْتـا

٣١ ولا تَحفِــلْ بمــالِـكَ والْـهُ عنــهُ ... فليسَ المــالُ إلاَّ مــاعَلِمتــا

٣٢ وليسَ لجاهِـلٍ في النَّـاسِ مَعْنًى ... ولــو مُلْــكُ العِراقِ لــهُ تــأَتَّى

---

(٢٣) في الدعاء المشهور : « إنِّي أعوذ بك من علم لا ينفع » وفيه « سلوا الله علماً نـافعـاً » و « اللهم إنِّي أسألك علماً نافعاً » .

(٢٥) كَبُر (بضم الباء) : عَظُمَ ، وهو يريد معنى التكبّر والتّعاظم .

(٢٧) تغبطها : أي تتمنى الحصولَ عليها (بعد تضييعها أو التشاغل والانشغال عنها) .

(٢٩) في سماء : أي في منزلة عالية (مادياً ومعنوياً) .

(٣٠) الهُوينى : التؤدة والرفق والسكينة والوقار .

(٣١) ينبه الشاعرُ السامعَ والقارئ على ما في القرآن الكريم من صفة المال في بعض الآيات التي ورد فيها ذكر المال ؛ قال تعالى في سورة الأنفال (٢٨/٨) : ﴿ واعْلَموا أنّما أموالُكُم وأَولادُكُم فِتنــةٌ ﴾ . وفي سورة سبأ (٣٧/٣٤) ﴿ وما أموالُكم ولا أولادُكم بالّتي تُقَرِّبُكم عندنا زُلفى ﴾ . وفي سورة المنافقون (٩/٦٣) ﴿ ياأيُّها الذين آمنوا لاتُلْهِكم أموالُكم ولا أولادُكم عَنْ ذِكرِ الله ﴾ .

(٣٢) ضرب المثل بـ (ملك العراقين) لما هو واسعٌ كثير من السلطة والملك ، ومنه قول أبي الطيب :

وغيرُ كثير أن يـزورَك راجـلٌ ... فيرجـع ملكاً للعراقين واليــاً !

٣٣ سَيَنطِقُ عَنْكَ عِلمُكَ في نَدِيٍّ ويُكتَبُ عَنكَ يَوماً إن كَتبتا

٣٤ وما يُغنيكَ تشييدُ الْمَباني إذا بالْجَهلِ نَفسَكَ قَد هَدَمتا

٣٥ جَعَلتَ المالَ فوقَ العِلمِ جَهلاً لَعَمْرُكَ في القَضِيَّةِ ما عَدَلتا

٣٦ وبَينَهُما بِنَصِّ الوَحيِ بَونٌ سَتَعلَمُهُ إذا «طَهَ» قرأْتا

٣٧ لئنْ رَفَعَ الغنيُّ لِواءَ مالٍ لأَنْتَ لِواءَ عِلْمِكَ قد رَفَعتا

٣٨ وإنْ جَلَسَ الغنيُّ على الْحَشايا لأَنْتَ عَلى الكواكبِ قد جَلَسْتا

٣٩ وإن ركبَ الجِيادَ مُسَوَّماتٍ لأَنتَ مناهِجَ التَّقوى ركِبْتا

٤٠ ومَهما افتَضَّ أبكارَ الغَواني فكَمْ بِكرٍ منَ الحِكَم افتَضَضتا

٤١ وليسَ يَضُرُّكَ الإقتارُ شَيئاً إذا ما أنتَ ربَّكَ قَد عَرَفتا

٤٢ فَماذا عِندَهُ لَكَ منْ جميلٍ إذا بِفِناءِ طاعَتِهِ أَنَخْتا

٤٣ فقابِل بالقَبولِ صَحيحَ نُصحي فإن أعرَضتَ عنه فقد خَسِرتا

---

(٣٣) النَّديّ والنادي : مجتمع القوم .

(٣٦) قال البلوي (ألف باء ١٣/١) معلقاً على إشارة البيت : يريد قوله تعالى ﴿ وَقلْ ربِّ زِدْني عِلماً ﴾ [طه ١١٤/٢٠] .

(٣٨) الحشايا : ج الْحَشِيَّة : الفراش المحشو ؛ وهو ـ كما في متن اللّغة ـ المعروف في الشام بالطرّاحة . وما تزال الكلمة حيّة في ديار الشام . والبيت في معنى : رُتبةُ العلم أعلى الرتب .

(٣٩) سوّم الفرس : أعلمه بسومة . والسّومة : السّمة والعلامة .

(٤١) الإقتار مصدر أَقْتَر الرجل : قلَّ ماله وضاق عيشه .

(٤٢) استعمل (ماذا) بدلاً من (كم ذا) لأنّ المعنى : إذا لزمت طاعة الله سبحانه وتعالى ، ظفرت بكثير مما أعدَّ الله لعباده من أهل الطاعة . وكلمة (جميل) صفة لموصوف محذوف مقدّر .

٤٤	وَإنْ راعَيْتَـــهُ قَــولاً وفِعْـــلاً	وتـــاجَرْتَ الإلَـــهَ بِـــهِ رَبِحْتـــا
٤٥	فليْسَت هـــذِهِ الـــدُّنيـــا بشيءٍ	تَسُــوؤُكَ حقْبَـــةً وتَسُرُّ وَقْتــــا
٤٦	وغــــايَتُهـــا إذا فكَّرتَ فيهــــا	كَفَيْئِـكَ أو كَحُلْمِـكَ إنْ حَلَمتـا
٤٧	سُجِنْتَ بِهـــا وأنْتَ لهـــا مُحِبٌّ	فكيف تُحِبُّ مـــا فيـــهِ سُجِنتـــا
٤٨	وتُطعِمُــكَ الطَّعــامَ وعن قَريبٍ	ستَطْعَمُ منــكَ مـــامِنْهـا طَعِمْتــا
٤٩	وتَعْرَى إنْ لَبِسْتَ لهـــا ثِيـــابـــاً	وتُكْسى إنْ مـــلابِسَهـــا خَلَعْتـــا
٥٠	وتشهَـــدُ كلَّ يـــومٍ دَفنَ خِـــلٍّ	كأَنَّـــكَ لا تُرادُ بِما شَهِـــدتـــا !
٥١	ولَمْ تُخْلَـــق لِتَعْمُرَهـــا ولكنْ	لِتَعْبُرَهـــا فَجِـــدَّ لِما خُلِقْتـــا
٥٢	وإن هُـدِمَتْ فَـزِدها أنتَ هَـدماً	وحَصِّن أمرَ دينِـكَ مـا استطَعتـا

---

(٤٤) في سورة فاطر [٣٥/٢٩] : ﴿ إنَّ الذين يتلون كتابَ اللهِ وأقامُوا الصَّلاةَ وأنفقوا مما رزقناهم سِرّاً وعلانيةً يَرجون تجارةً لن تَبور ﴾ . وفي سورة الصف [٦١/١٠] : ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا هل أدلُّكم على تجارةٍ تُنجيكم من عَذابٍ أليم ، تؤمنون باللهِ ورسوله وتجاهدون في سبيلِ الله بأموالِكم وأنفسِكم ذلكُمْ خيرٌ لكم إنْ كُنتم تعْلمون ﴾ والمرادُ بالمتاجرة في الآيتين الكريمتين : المعنى المجازي .

و « التجارة » تَرِدُ للعمل : يترتَّب عليه خيرٌ أو شَرّ .

(٤٦) الفيء ـ هنا ـ ما كان شمساً فينسخه الظل ، والْحلُم بضم اللام وسكونها .

(٤٧) في الحديث : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » . رواه مسلم وغيره .

(٥١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : نام رسول الله ﷺ على حَصير فقام وقد أثّر في جنبه ؛ قلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك وِطاء فقال : « ما لي وللدُّنيا ؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظلَّ تحتَ شَجرة ، ثم راحَ وتركها » . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح . وفي مسند الإمام أحمد (٢/٢٤) أنَّ عبدَ الله بنَ عُمَرَ بنِ الخطّاب رضيَ اللهُ عنه قال : أخذَ رسول اللهِ ﷺ ببعض جسدي فقال : « يا عبدَ الله ، كُنْ في الدُّنْيا كأنَّكَ غريبٌ أوْ عابِرُ سبيلٍ ، واعْدُدْ نَفْسَكَ في الْمَوْتى » .

٥٣	ولا تحـزَنْ على مـا فـاتَ مِنْهـا	إذا مـا أنتَ في أُخْراكَ فُـزْتـا
٥٤	فليسَ بنـافـعٍ مـا نِلْتَ فيهـا	مِنَ الفـاني، إذا البـاقي حُرِمتـا
٥٥	ولا تَضْحَـك مـع السُّفهـاءِ لَهـواً	فـإنَّـكَ سوفَ تبكي إن ضَحِكتـا
٥٦	وكيفَ لـكَ السُّرورُ وأنتَ رَهنٌ	ولا تَـدري أَتُفـدى أم غَلِقْتـا
٥٧	وسَل مِن رَبِّـكَ التَّوفيقَ فيهـا	وأَخلِصْ في السُّؤالِ إذا سَـأَلتـا
٥٨	ونـادِ إذا سَجَـدْتَ لـهُ اعْتِرافـاً	بمـا نـاداهُ ذو النُّـون بنُ مَتّى
٥٩	ولازِمْ بـابَـهُ قَرْعـاً عَسـاهُ	سَيَفتَـحُ بـابَـهُ لـكَ إن قَرَعْتـا
٦٠	وأَكثِرْ ذِكرَهُ في الأَرضِ دَأْبـاً	لِتُـذكَرَ في السَّماءِ إذا ذَكَرْتـا
٦١	ولا تَقُـل الصِّبـا فيـه مَجـالٌ	وفَكِّرْ كم صَغيرٍ قـد دفَنْتـا !

(٥٣) راجع مافي التنزيل الحكيم (الحديد ٥٧ / الآيات ٢٢ ـ ٢٣) .

(٥٥) في سورة التوبة ٨٢/٩ : ﴿ فَلْيَضْحَكوا قَليلاً وَلْيَبْكوا كَثيراً جَزاءً بِما كانوا يَكْسِبون ﴾ .

(٥٦) غَلِقَ الرَّهْنُ : استحقّه المُرتهن ؛ وذلك إذا لم يُفْتَكّ في الوقت المشروط .

(٥٨) قال تعالى في سورة الأنبياء (٢١ : ٨٧ ـ ٨٨) : ﴿ وذا النُّون إذ ذهبَ مُغاضِباً فظَنَّ أن لن نقدرَ عَليه فَنادى في الظُّلماتِ أنْ لاإلٰهَ إلاّ أنت سُبحانَك إنّي كُنت من الظّالمين . فاستجَبْنا له ونَجَّيْناهُ من الغَمّ وكذلك نُنجي الْمُؤمِنين ﴾ .

ـ قال القرطبي في تفسيره (٣٢٩/١١) : ذو النون لقب ليونس بن متّى (عليه السلام) ولُقب بذلك لابتلاع النون إياه .

ـ والنون : الحوت .

(٦٠) في التنزيل الحكيم [البقرة ١٥٢/٢] : ﴿ فاذكُروني أذكُركم واشكُروا لي ولا تَكْفُرون ﴾ .

(٦١) في كشف الخفا (١٤٨/١) : « اغتنمْ خمساً قبلَ خَمس ؛ حياتك قبل موتك ، وصحّتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك » . رواه الحاكم وصححه البيهقي عن ابن عباس . قال : قاله رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظهُ .

٦٢ وقُـلْ لي يـا نَصيـحُ لأَنْتَ أَولى ... بنُصْحِـكَ لـو بعقلـكَ قـد نَظَرْتـا
٦٣ تُقطِّعني على التَّفريـطِ لَـوْمـاً ... وبـالتَّفريـطِ دهْرَكَ قـد قَطعتـا
٦٤ وفي صِغَري تُخَـوِّفُني الْمَنـايـا ... ومـا تَجْري بِبـالِـكَ حِينَ شِخْتـا
٦٥ وكُنْتَ مـع الصِّبـا أَهْـدَى سبيلاً ... فما لـكَ بعـدَ شَيْبِـكَ قـد نُكِستـا
٦٦ وهـا أنـا لم أَخُضْ بَحْرَ الْخَطـايـا ... كما قَـدْ خُضْتَـهُ حتّى غَرِقتـا
٦٧ ولم أَشْرَبْ حُمَيّـا أُمِّ دَفْرٍ ... وأَنتَ شَرِبْتَهـا حتّى سَكِرتـا
٦٨ ولم أَحْلُـلْ بِـوادٍ فيـه ظُلْمٌ ... وأَنتَ حَللتَ فيـهِ وانْهَمَلتـا
٦٩ ولم أَنْشَـأْ بِعَصْرٍ فيـهِ نَفـعٌ ... وأَنتَ نشأْتَ فيـه ومـا انتفَعْتـا
٧٠ وقـد صـاحَبْتَ أَعْلامـاً كِبـاراً ... ولم أَرَكَ اقتـديْتَ بِمَنْ صَحِبْتـا
٧١ ونـاداكَ الكِتـابُ فلَم تُجِبْـهُ ... ونَهْنَهَـكَ الْمَشيبُ فما انتبَهْتـا
٧٢ لَيَقْبُـحُ بـالفَتى فِعْـلُ التَّصـابي ... وأَقبَـحُ منـهُ شيـخٌ قـد تَفتّى

---

(٦٢) يقال : هو ناصح ونَصيح ، من فعل نصح ؛ يقال : نصَحه ونصَح له .

(٦٣) فرَّط في الشيء : ضيّعه وقدّم العَجْزَ فيه ؛ وقصّر .

(٦٥) يقال : نُكِس المريض : إذا عاودَتْه العلّة بعد النَّقه . ونُكس على رأسه : رجع عمّا عَرفه .
وفي التّنزيل العزيز في ذكر قوم إبراهيم ﴿ ثُمَّ نُكِسوا على رُؤوسهم ﴾ .

(٦٧) أمُّ دَفْرٍ : كنيةُ الدنيا . (انظر ثمار القلوب في المضاف والمنسوب : ٢٥٧) .
والحميّا من الكأس : سورتها وشدتها ، أو إسكارها ، أو أخذها بالرأس .

(٦٨) أصل معنى همل (الدمع) وانهمل : انصبّ ، وانهملت العين : فاضت .

(٧١) نهنهه عن الأمر : كفّه وزجره .

(٧٢) شيخ قد تَفَتّى : سلك سبيل الفتيان .
وفي حديث أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « خير شبابكم من تشبّه بكهولكم ، وشرُّ كهولكم من تشبّه بشبابكم » رواه في بهجة المجالس ٢/٢١١

٧٣ فــأنتَ أَحَـقُّ بــالتَّفنيــدِ مِنّي ... ولــو سكتَ الْمُسيءُ لَما نَطَقْتــا

٧٤ ونَفْسَــكَ ذُمَّ لاتَــذمُمْ سِـواهــا ... بعَيْبٍ فهيَ أَجــدَرُ مَنْ ذَمَمْتــا !

٧٥ فلـو بَكَتِ الـدِّما عينـاكَ خَـوفاً ... لِـذَنبِـكَ لمْ أقُـلْ لــكَ قــد أمِنتـا

٧٦ ومَن لــكَ بــالأمــانِ وأَنْتَ عبـدٌ ... أُمِرتَ فَما ائتَمرتَ ولا أَطعتــا

٧٧ ثَقُلتَ مِنَ الـذُّنوبِ ولستَ تَخْشى ... لجهلِــكَ أَنْ تَخِفَّ إذا وُزِنتــا

٧٨ وتُشفِـق للْمُصِرّ على الْمَعــاصي ... وتَرحَمُــهُ، ونَفسَـكَ مـا رَحِمتـا

٧٩ رجعتَ القَهقَرى وخَبطتَ عشــوا ... لَعَمرُكَ لــو وصَلْتَ لَما رَجَعتــا !

٨٠ ولــو وافَيتَ ربَّــكَ دونَ ذَنْبٍ ... ونــاقَشَـكَ الحِســابَ إذاً هَلَكتـا

٨١ ولم يظلمــكَ في عَمَــلٍ ولكن ... عَسيرٌ أن تقــومَ بمــا حَمَلْتــا

٨٢ ولَـو قــد جئتَ يـومَ الفَصلِ فَرداً ... وأبصرتَ المنــازلَ فيــه شَتَّى

٨٣ لأَعظَمتَ النَّـدامـةَ فيــهِ لَهفــاً ... على مـا في حَيـاتــكَ قــد أَضَعْتـا

---

(٧٣) فنّده تفنيداً : كذّبه ، وعجّزه ، وخطّأ رأيه .

(٧٧) في التنزيل العزيز [القارعة ١٠١/٥-٩] : ﴿ فَأمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُه فهو في عيشةٍ راضيـة . وأَمَّا مَن خَفَّتْ مَوازينه فأُمُّهُ هاوية ﴾ .

(٧٨) في الأساس : أشفقت عليه أن يناله مكروه ، وأنا مشفق عليه من هذا الأمر .

(٧٩) رجع القهقرى : إلى الوراء ، وخبط عشواء : مثَلٌ ، وأصلـه من خبـط النـاقـة التي ضعف بصرها ، فهي لاتميّز أين تمضي وماذا تصيب في طريقها .

(٨٠) عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ حوسب يوم القيامة عُذّب » . فقلت : أليس قد قال الله عز وجَلّ : ﴿ فسَوفَ يحاسَبُ حساباً يَسيراً ﴾ فقال : « ليس ذاك الحساب ، إنما ذلك العَرْض ؛ من نوقش الحسابَ يوم القيامة عُذّب » .

(٨٢) في سورة مريم [١٩/٩٣-٩٥] : ﴿ إنْ كُـلُّ مَنْ في السَّماواتَ والأَرض إلا آتي الرحمن عَبـدا . لقد أَحصاهُم وعدَّهم عدًّا . وَكُلهم آتيهِ يومَ القيامةِ فَردا ﴾ .

(٨٣) في التنزيل الحكيم [الزمر ٣٩/٥٥-٥٦] : ﴿ واتّبِعوا أَحسنَ ماأُنزلَ إليكم من ربكم مِن قبلِ أنْ =

٨٤ تَفِرُّ مِنَ الْهَجِيرِ وتتَّقيه ... فَهَلاً عن جهنَّمَ قد فَرَرتا ؟
٨٥ ولستَ تُطيقُ أَهوَنَها عَذاباً ... ولو كنتَ الحديدَ بها لَذُبتا
٨٦ فلا تُكذبْ فإنَّ الأمْرَ جِدٌ ... وليسَ كما احتسَبْتَ ولا ظَنَنْتا
٨٧ أبا بكرٍ كَشَفتَ أقلَّ عَيبي ... وأَكثَرَهُ ومُعظَمهُ سَتَرتا
٨٨ فقُلْ ما شئتَ فيَّ من المخازي ... وضاعِفها فإنَّكَ قد صَدَقتا
٨٩ ومهْما عِبتَني فَلِفَرطِ عِلمي ... بباطنَتي كأنَّكَ قد مَدَحْتا
٩٠ فلا تَرْضَ الْمَعايبَ فهيَ عارٌ ... عَظيمٌ يورِثُ الإنسانَ مَقْتا
٩١ وتَهوي بالوَجيهِ مِنَ الثُّرَيَّا ... وتُبْدِلُهُ مكانَ الفَوْقِ تَحْتا
٩٢ كما الطَّاعاتُ تَنعَلُكَ الدَّراري ... وتجعلُكَ القريبَ وإن بَعُدْتا
٩٣ وتنشُرُ عنكَ في الدُّنيا جميلاً ... فتُلْفَى البَرَّ فيها حيثُ كُنتا
٩٤ وتَمشي في مَناكِبِها كَريماً ... وتَجني الْحَمدَ مِمَّا قد غَرَسْتا

= يأتيَكم العذاب بغتةً وأنتم لاتشعرون . أنْ تقولَ نفسٌ يا حسرتا على مافَرَّطتُ في جَنبِ الله وإن كنتُ لَمِنَ الساخرين ﴾ .

(٨٤) الهجير : نصف النهار في القيظ خاصة (أي في عزِّ الصيف) .

(٨٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما من حديث رسول الله ﷺ : « أهونُ الناس عذاباً يوم القيامة رجل يوضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه » . الفتح الكبير (٤٧٢/١) .

(٨٦) أي لا يكن منك غفلة فتصدق مايُكذب به عليك في أحوال الآخرة ؛ واحتسبه : ظنه .

(٨٩) الباطنة من الرجل : سريرته .

(٩٠) يقال : مقته يمقته مقتاً أي : أبغضه أشد البغض وكرهه لقبيح ركبه . وقد وردت الكلمة في أكثر من موضع في القرآن الكريم .

(٩١) الوجيه : ذو الجاه والقدر .

(٩٢) أي تجعل الدراري (النّجوم) كالنعل لك (على سبيل المبالغة وضرب المثل) .

٩٥ وأنتَ الآنَ لَمْ تُعرفْ بِعــــابٍ	ولا دنَّستَ ثوبَـكَ مُـذ نشأتـا
٩٦ ولا ســابَقتَ في ميــدانِ زُورٍ	ولا أوضَعْتَ فيــهِ ولا خَبَبتـا
٩٧ فـإنْ لم تَنـأْ عنـهُ نَشِبتَ فيـهِ	ومَنْ لـكَ بـالْخَلاصِ إذا نَشِبتـا
٩٨ ودَنَّسَ مــا تَطهَّرَ منــكَ حتَّى	كأنَّـكَ قبـلَ ذلـكَ مـا طَهُرتـا
٩٩ وصِرتَ أسيرَ ذَنبِــكَ في وَثــاقٍ	وكيفَ لـكَ الفكاكُ وقـد أُسِرتـا
١٠٠ وخَفْ أبنـاءَ جِنسِكَ واخْشَ مِنْهُم	كما تخشَى الضَّراغِمَ والسَّبَنْتَى
١٠١ وخـالِطْهُم وزايِلهُم حِــذاراً	وكنْ كالسَّــامريِّ إذا لمسْتــا
١٠٢ وإن جَهلوا عليكَ فقُلْ سَلامـاً	لعلَّــكَ ســوف تسْلم إنْ فَعَلْتــا
١٠٣ ومَنْ لـكَ بـالسَّلامـةِ في زَمانٍ	ينـــالُ العُصْمَ إلا إنْ عُصِمتـــا

(٩٥) العاب : الوصمة .

(٩٦) الْخَبَب : ضَرب من العَدو . وأوضعت الناقة في سيرها : أسرعت .

(٩٧) نشب في الأمر : وقع فيما لا مَخْلَص له منه .

(١٠٠) في هامش الأصل المخطوط : الضراغم : الأسود . السبنتى : النَّمر .

(١٠١) كان السامري عظيماً في بني إسرائيل ـ قيل هو منهم وقيل : دخل فيهم . دعاهم إلى الضلالة وعبادة العجل . قال الحسن : جعل اللهُ عقوبةَ السامريِّ ألا يماسَّ الناس ولا يماسّوه عقوبة له ولمن كان منه إلى يوم القيامة . وكأن الله عز وجل شدد عليه المحنة بأنْ جعله لا يماس أحداً ولا يمكن من أن يمسه أحد . ومعنى زايلهم : فارقهم .

ـ راجع تفسير القرطبي لخبر السامري ٢٣٢/١١ وما بعدها . وفي التنزيل الحكيم في سورة طه [٩٧/٢٠] : ﴿ قال فاذهبْ فإنّ لكَ في الحياةِ أن تقولَ لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه وانظرْ إلى إلهك الذي ظلْتَ عليه عاكفاً لَنُحَرِّقَنَّه ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ في اليَمِّ نَسْفا ﴾ .

(١٠٢) في التنزيل الحكيم [الفرقان ٦٣/٢٥] : ﴿ وعبادُ الرَّحمنِ الذين يمشونَ على الأرضِ هوناً وإذا خاطَبهم الجاهلونَ قالوا سَلاما ﴾ .

(١٠٣) العُصم (بالضم) جمع أعصم ، وهو من الظباء والوعول ما في ذراعيه أو أحدهما بياض وسائره أسود أو أحمر . وأراد مُطْلَق الوعول لأنها تسكن الجبال .

١٠٤ ولا تَلبَثْ بِحَيٍّ فيـــــهِ ضَيْمٌ يُميتُ القَلبَ إلا إنْ كُبِلْتـــــا

١٠٥ وغَرِّبْ فـالغَريبُ لــهُ نَفـاقٌ وشرِّقْ إنْ بِريقكَ قـد شَرِقتـا

١٠٦ ولَـوْ فـوقَ الأَميرِ تَكـونُ فيهـا سُمُـوّاً وافتخـاراً كنتَ أنتـا

١٠٧ وإنْ فرَّقْتَهـا وخرجْتَ مِنْهـا إلى دارِ السَّلامِ فقـد سَلِمتـا

١٠٨ وإنْ كَرَّمْتَهـا ونَظَرْتَ مِنْهـا بـإجـلالٍ فنفسَكَ قَدْ أَهَنْتـا

١٠٩ جمعتُ لكَ النَّصائحَ فـامْتَثِلْها حيـاتَكَ ؛ فهيَ أَفْضَلُ ما امْتَثَلْتا

١١٠ وطَـوَّلْتُ العِتـابَ وزِدْتُ فيـهِ لأَنَّكَ في البَطـالـةِ قـد أَطَلْتـا

١١١ فـلا تـأخُـذْ بتقصيري وسَهْـوي وخُـذْ بـوصِيَّتي لـكَ إنْ رَشَـدْتـا

١١٢ وقـد أَرْدَفْتُهـا ستّـاً حِسـانـاً وكانَتْ قَبْـلَ ذا مِئـةً وسِتّـا

---

(١٠٤) وفي شعر المتلمس (ديوانه : ١٩٦) ويجري كلامه مجرى المثل :

ولا يقيمُ على ضيمٍ يُسـام بـهِ إلا الأَذَلاّن عَيْرُ الحيّ والـوَتِـدُ

هـذا على الخسفِ مربوطٌ برُمَّتِـه وذا يُشَـجّ فـلا يَرثي لـه أحـدُ!

(١٠٥) قوله : غرّب وشرّق : أي سرْ في الأرض وتحول عن مواطن الضيم .

(١٠٧) في الأصل المخطوط : فرَّقتها . وأقرؤها بالألف (فارقتها) لمناسبة المعنى الظاهر .

(١٠٩) امتثل الطريقة : اتبعها فلم يَعْدُها (لم يتجاوزها) .

(١١٢) الإشارة إلى عدد أبيات القصيدة . فهي في ١١٢ بيتاً ، كانت في الأصل ١٠٦ أبيات وزاد فيها ٦ أبيات .

[٢]

وله أيضاً ـ رحمه الله ورضي عنه ـ

[النص قصيدة كاملة من خمسة عشر بيتاً . وقد أدارها الشاعر على موضوع الموت باعتباره نذيراً مهمّاً ينذر الإنسان (بترقّبه وظهور معالمه) وجعل الأبيات ١ ـ ٣ مقدمة ومدخلاً ، ثم استرسل في أثر الزمن الذي يخبره بأن لكل حيٍّ نهاية ٤ ـ ١١ ووقف عند الذنوب ، ولام نفسه ورثى لها قبل موتها ١٢ ـ ١٤] .

[من الوافر]

١ تُغـازِلُني الْمَنيَّـةُ من قَريبِ ... وتَلحَظُني مُـلاحظَـةَ الرَّقيبِ

٢ وتَنشرُ لي كِتـابـاً فيـهِ طَيِّي ... بخَـطِّ الـدَّهرِ أسطُرُه مَشيبي

٣ كِتـابٌ في مَعـانيـهِ غُمـوضٌ ... يلـوحُ لكُـلِّ أوَّابٍ مُنيبِ

٤ أرى الأَعصـارَ تعصِرُ مـاءَ عُودي ... وقِـدمـاً كنتُ ريَّـانَ القَضيبِ

٥ أَدالَ الشَّيبُ يـا صـاحِ شَبـابي ... فعُـوِّضْتُ البَغيضَ من الحبيبِ

٦ وبُـدِّلتُ التَّثـاقُـلَ مِن نَشـاطي ... ومِن حُسْنِ النَّضـارَةِ بـالشُّحوبِ

---

(١) يقال غازَل النساء : أي حادثهن ولَها معهنّ . والمغازلة في البيت هنا على المجاز .

(٤) الأعصار جمع : العصر ؛ ويقال : عُصور وأعْصُر وعُصُر ، والعَصْرُ يُطلق على كلّ مدة ممتدة غير محدودة . وأراد بها السنين .

(٥) أي غلب الشيبُ الشباب . وفي كتب اللغة : أداله الله من عدوه : كانت له الغلبة والنصرة والدولة عليه .

٧ كَـذاكَ الشَّمْسُ يعلـوهـا اصفِرارٌ إذا جنحَتْ ومـــــالَتْ للغُروبِ

٨ تُحـــارِبُنـــا جُنـودٌ لا تُجـــارى ولا تُلقى بـــآســـادِ الْحُروبِ

٩ هيَ الأَقـــدارُ والآجـــالُ تـــأْتي فَتَنْـــزِلُ بـــالْمُطَبَّبِ والطَّبيبِ

١٠ تُفَـــوِّقُ أَسهُماً عن قَـــوسِ غَيبٍ ومـــا أَغراضُهـــا غَيْرُ القُلـوبِ

١١ فـــأَنَّى بـــاحتِراسٍ مِنْ جُنـودٍ مـؤيَّـــدَةٍ تُمَـــدُّ مِنَ الغُيـوبِ

١٢ ومـــا آسَى على الـــدُّنيـــا ولكنْ على مـا قـد ركبتُ من الـذُّنوبِ

١٣ فيـــا لَهفي على طُـولِ اغتِراري ويـــا وَيحي من اليـومِ العَصيبِ

١٤ إذا أنـــا لم أَنُـــحْ نَفسي وأَبكي على حُـوبي بِتَهْتـــانٍ سَكـوبِ

١٥ فَمَنْ هـذا الّـذي بَعـدي سيَبكي عليهـــا من بَعيـــدٍ أو قريبِ ؟

---

(٧) جنحت : بمعنى مالت .

(١٠) في اللسان (فوق) : الفوق من السّهم : موضع الوتر ، والجمع أفواق ، وفي حديث علي عليه السلام يصف أبا بكر رضي الله عنه : كنت أخفضهم صوتاً وأعلاهم فُوقاً أي أكثرهم حظّاً ونصيباً من الدين . وهو مستعار مِن فُوق السّهم : موضع الوتر منه .
وفوّق السهم : جعل الوتر في فوقه عند الرمي . والفوقُ هو موضع الوتر من السّهم ، والغرض : الهدف الذي يُرمى فيه الشيءُ المقصود .

(١٣) العصيب من الأمر والأيام والليالي : الشديد .

(١٤) يقال : ناحت المرأة زوجها ، وناحت عليه .
ـ الحوب : الإثم .

[٣]

وله ـ رحمه الله ونضَّر وجهه

[توصل الشاعر من حوار أجراه مع حمامة ساجعة إلى إثبات مجاراته تلك الحمامة في البكاء على اختلاف بينه وبينها ، فهي ـ كما قرّر ـ تشكو فرقة المؤنس الحبيب وهو يشكو عبء الذنوب] .

[من الكامل]

١ أحمـــامَـــةَ البَيـــدا أطَلْتِ بُكاكِ   فَبِحُسن صَوتكِ ما الّـذي أبكاكِ ؟ (١)

٢ إن كانَ حقّـاً مـا ظَنَنْتُ فـإنَّ بي   فوقَ الذي بـكِ من شَـديـدِ جَواكِ (٢)

---

(١) في شعر يحيى بن هُذيل (٣٠٥ ـ ٣٨٩ هـ) قطعة يخاطب فيها الحمامة يقول فيها :

ومُرنَّـةٍ والـدّجنُ ينسـج فـوقهـا   بُردين من حَلَـكٍ ونـوءٍ بـاكِ

مـالت على طيّ الجنـاحِ وإنمـا   جعلتْ أريكتهـا قضيب أراكِ

وترنّمت لَحْنَيْنِ قـد خلّتها   كغنـاء مُسمعـةٍ وأنّـة شـاكِ

ففقـدت من نفسي لفرط صبـابتي   نفسَ الحيـاة وقلت : مَن أبكاكِ ؟

وفي شعر يوسف بن هارون الرّمادي (المتوفى سنة ٤٠٣) معارضة لقطعة ابن هذيل ، فيها :

أحمـامـةً فـوق الأراكـة بَيّني   بحيـاة من أبكاك مـاأبكاك ؟

أمّـا أنـا فبكيت من حُرَق الهـوى   وفراقِ من أهـوى أأنتِ كـذاك ؟

وفي قصيدة الإلبيري ردّ غير مباشر على هذا الشعر وما يُشبهه .

(٢) الجوى : الْحُرقة وشدة الوجد من عشق أو حَزن .

٣	إنّي أَظُنُّـكِ قـد دُهيتِ بِفُرقَـةٍ	من مُؤنِسٍ لَـكِ فـارتَمَضْتِ لِـذاكِ
٤	لكنَّ مـا أَشكـوهُ مِن فَرْطِ الْجَـوى	بخِـلافِ مـا تَجـدينَ من شَكْـواكِ !
٥	أَنـا إِنَّما أَبكي الـذُّنـوبَ وأَسْرَهـا	ومُنـايَ في الشَّكـوى مَنـالُ فَكاكي
٦	وإذا بكَيتُ سَـأَلتُ رَبّي رَحمَـةً	وتَجـاوُزاً؛ فَبُكايَ غَيرُ بُكاكِ !

---

(٢) في الأصل : فارتمضتُ ، بضم التاء . وظاهر أن الخطاب ـ ما زال ـ للحمامة (الأول من القصيدة) .
ـ والرمض شدة وقع الشمس على الرمل وغيره . ورمض يومُنا : اشتد حرّه الرمضاء : أحرقته .

[٤]

وله أيضاً   رحمة الله عليه

[بدأ الشاعر القصيدة ببيت مفرد فيه دعوة إلى تطهير النفس من آثامها ولو بدمعة بكاء صادقة أو دمعة مُستجلبة ، ويَدخل مباشرة إلى حديث الدنيا الخادعة الغَرور في حوار متخيّل بينه وبينها ، وبدأ بما تصنع لتخدع (٢ ـ ٩) وبما واجهها به (١٠ ـ ١٣) ووصف انخداع أكثر الناس بها (١٤ ـ ١٥) ورجع إلى الدنيا يسفّه رأيها وسلوكها وما تفعله بمن يحبّها (١٦ ـ ٢٢) ورأى العبرة فيمن مضى من الجبابرة والعظماء (٢٣ ـ ٢٦) وضرب المثل ـ على طريقته ـ من نفسه لينفتح له باب الكلام (٢٧ ـ ٢٩) وأعلى من شأن الزهد ، والزاهدين في عَرَض الحياة الدنيا (٣٠ ـ ٣٥) وختم ببيت واحد بالصلاة على رسول الله ﷺ] .

[من الكامل]

مَن لَيسَ بالباكي ولا الْمُتَباكي ... لِقَبيحِ ما يَأْتي فَلَيسَ بِزاكِ

نادتْ بِيَ الدُّنيا فقلْتُ لَها : اقْصِري ... ما عُدَّ في الأكياسِ مَن لَبّاكِ

ولَما صَفا عِنْدَ الإلَهِ ولا دَنا ... منهُ امْرُؤٌ صافاكِ أو داناكِ

---

(١) يقال : هو زاكٍ وزكِيّ من فعل زَكا ـ يزكو ، ومن معانيه : صَلُحَ .

(٢) نادى فُلاناً : دعاه ، وصاح بأعلى الأصواتِ ، ويقال : نادى به . أقصر : (بهمزة القطع) انتهى : وسهّلها الشاعر ضرورة .

٤ مــا زلْتِ خـــادِعَتي بِبَرْقٍ خُلَّبٍ ... ولـو اهْتَـديتُ لَمَا انْخَـدَعْتُ لِـذاكِ

٥ قـالَتْ أَغَرَّكَ من جنـاحِكَ طولُـهُ ... وكَـأَنْ بِـهِ قَـد قُصَّ في أشراكي

٦ تَـاللهِ مـا في الأَرضِ مَـوضِعُ راحَـةٍ ... إلاّ وقَـد نُصِبَتْ عَلَيـهِ شِبـاكي

٧ طِرْ كَيفَ شِئتَ فـأَنتَ فيهـا واقـعٌ ... عـانٍ بهـا لا يُرتَجَى لِفَكاكِ

٨ مَنْ كانَ يَصرَعُ قِرنَـهُ في مَعرَكٍ ... فَعَلَيَّ صَرعَتُـهُ بغَيرِ عِراكِ

٩ ما أَعرِفُ العَضبَ الصَّقيلَ ولا القَنا ... ولقد بَطَشتُ بِذي السِّلاحِ الشّـاكي

١٠ كَم ضَيغَمٍ عَفَّرتُـهُ بِعَرينِـهِ ... ولكَم فَتكْتُ بـأَفتَـكِ الفُتّـاكِ

١١ فـأجَبتُها مُتعجِّبـاً مِن غَـدرِهـا ... أَجَـزَيتِ بـالبَغضـاءِ مَن يَهـواكِ ؟

١٢ لأَجَلْتُ عَيني في بَنيـكِ فَكلُّهم ... أَسراكِ أَو جَرحـاكِ أَو صَرعـاكِ

١٣ لَـو قـارَضوكِ على صَنيعـكِ فيهِمُ ... قَطَعـوا مَـدى أَعمـارِهِم بِقِـلاكِ

١٤ طَمسَت عُقـولَهُم ونُـورُ قُلـوبهم ... فتهـافَتـوا حِرصـاً على حَلـواكِ

١٥ فَكأَنَّهُم مثـلُ الـذُّبـاب تَسـاقطتْ ... في الأَريِ حَتّى استُؤصِلوا بِهلاكِ

١٦ لا كُنتِ مِن أُمٍّ لَنـا أَكّـالـةٍ ... بعـدَ الـوِلادَةِ، مـا أَقَـلَّ حَيـاكِ !

١٧ ولقَـد عَهِـدنـا الأُمَّ تَلطُفُ بـابنِهـا ... عَطفـاً عَلَيـهِ وأَنتِ مـا أَقسـاكِ

---

(٤) الْخُلَّب : السحاب يومضُ برقهُ حتّى يُرجى مطره ثم يخلفُ ويتقشّع . يقـال : برق خلّب ، والبرق الخلّب ... ويشبّهُ بـه من يَعِدُ ولا ينجز . والمعنى إسلاميّ قرآني ، ومنـه مثلاً مـا في سورة آل عمران (١٨٥/٣) : ﴿ وما الحياةُ الدُّنيا إلا متاعُ الغُرور ﴾ .

(٥) الكاف في (أغرّك) و (جناحك) مكسورة في المخطوط . قلت : يُنظر الخطاب بعد ذلك .

(٧) عانٍ : أي أسير .

(٨) القِرن (بالكسر) كُفْؤُكَ في الشّجاعة ، أو هو عام .

(١٠) الضيغم من أسماء الأسد ، وهو الذي يعضّ كثيراً أو هو الواسع الشّدق .

(١٥) الأَرْيُ : العَسل .

١٨	مـا فـوقَ ظهرِكِ قـاطِنٌ أو ظـاعِنٌ	إلا سَيُهشَمُ في ثِفـال رَحـاكِ
١٩	أَنتِ السَّرابُ وأنتِ داءٌ كامِنٌ	بينَ الضُّلوعِ فَما أعَـزَّ دَواكِ !
٢٠	يُعصَى الإلَـهُ إذا أُطِعتِ وطـاعَتي	للهِ رَبِّي أن أشُـقَّ عَصـاكِ
٢١	فَرضٌ عَلَينـا بِرُّنـا أُمّـاتِنـا	وعُقـوقُهنَّ مُحَرَّمٌ إلاّكِ
٢٢	ما إن يَـدومُ الفقرُ فيـكِ ولا الغِنى	سِيّـان فَقْرُكِ عِنـدَنـا وغِنـاكِ
٢٣	أينَ الْجَبـابرةُ الأُلى وَرِيـاشُهُمْ	قـد بـاشَروا بَعـدَ الْحَريرِ ثَراكِ !
٢٤	وَلَطـالَما رُدُّوا بـأَرديـةِ البَهـا	فَتَعـوَّضُـوا منهـا رِداءَ رَداكِ
٢٥	كانت وُجـوهُهُمْ كأقْمـارِ الـدُّجـا	فَغَـدَتْ مُسَجّـاةً بِثَـوْبِ دُجـاكِ

---

(٢٤) قول الشاعر : رُدّوا بأردية البها : يُقال : رَدّاه : أي ألبسه الرّداء . والبها ، هي : البهاء ، وسُهِّلت الهمزة .

(١٣) في الأساس : فلان يُقارض الناس مقارضةً : يُلاحيهم ويُواقِعُهم (كالمشاتمة) وعن أبي الدرداء : إن قارضْتَ الناسَ قارضوك وإن تركتهم لم يَتْركوك !

(١٤) في الأساس : طمس الأثرُ ، وطمسَتْهُ الرّيح (أي يكون الفعل لازماً ويجيءُ متعدّياً) .

(١٥) الأرْي : العَسل .

(١٧) في شعر أبي نواس (ديوانه : ١٩٤) :

إذا امتحن الدنيـا لبيبٌ تكشفت ... لـه عن عـدوٍّ في ثيـاب صَـديقِ

(١٨) الثِّفال : الْحَجر الأسفل من الرّحى .

(٢٠) المعنى العام لعبارة « شقّ العصا » هو : خالف الجماعة وشقّ اجتماعهم . ويريد الشاعر بـ « شق عصا الدنيا » مخالفتها واتّباع أوامر الله واجتناب نواهيه .

(٢١) تجمع كلمة (أُمّ) على أمّات وأُمّهات ؛ والأغلب أن تجيء أُمّات لغير العاقل ، وأُمّهات للعاقل .

(٢٣) الرّياش والرِّيش ؛ بمعنًى ، وهو اللّباس الفاخر .. وفي التنزيل العزيز [الأعراف ٢٦/٧] : ﴿ يا بني آدمَ قد أنْزَلْنا عليكم لباساً يواري سوءاتِكم وريشاً ولباسُ التقوى ذلكَ خيرٌ ذَلك من آياتِ اللهِ لعلهم يَذَّكَّرونَ ﴾ .

٢٦ وَ عَنَت لِقَيُّـوم السَّماوات العُــلا رَبٌّ الجميـع ، وقـاهِر الأَمـلاكِ
٢٧ وجَلالِ ربِّي لـو تَصِحُّ عَـزائمي لـزَهِدتُ فيـكِ ولابتَغَيتُ سِواكِ
٢٨ وأخَذتُ زادي منْك من عَمَل التُّقى وشَـدَدتُ إيمـاني بنَقض عُراكِ
٢٩ وحَطَطْتُ رَحلي تَحتَ أَلوِيَةِ الْهُدى ولَما رآني الله تَحتَ لِـواكِ
٣٠ مَهلاً عَلَيـك فَسَوفَ يَلحَقُكِ الفَنـا فَتَرَيْ بـلا أرضٍ ولا أفـلاكِ
٣١ ويُعيـدُنـا رَبٌّ أمـاتَ جَميعَنـا لِيَكـونَ يُرْضي غَيْرَ مَنْ أرضـاكِ
٣٢ واللهِ مـا الْمَحبـوبُ عِنْـدَ مَليكِـهِ إلا لَبيبٌ لم يَـزَل يَشْنـاكِ
٣٣ هَجرَ الغَـواني واصِـلاً لِعَقـائلٍ يضحَكنَ حُبّـاً للوليِّ البـاكي
٣٤ إنِّي أرِقتُ لَهُنَّ لا لِحَمائِمٍ تَبكي الْهَـديلَ على غُصـونِ أراكِ
٣٥ لا عَيشَ يَصفـو لِلْمُلـوكِ وإنَّما تَصفـو وتُحمَـدُ عِيشَـةُ النُّسّـاكِ
٣٦ ومِنَ الإلَـهِ على النَّبيِّ صَـلاتُـهُ عَـددَ النُّجـومِ وعِـدَّةَ الأَمـلاكِ

---

(٢٦) في التنزيل الحكيم [طه ١١١/٢٠] قوله تعالى : ﴿ وعنتِ الوجوهُ للحيِّ لقيوم وَقَد خابَ من حَمل ظُلما ﴾ . ومعنى عنت : خضعت وذلت .

(٢٧) قوله : وجلالِ ربّي ؛ الواو هنا للقسم .

(٣٢) يَشناك : أصلها : يشنَؤُك ثم سُهلت الهمزة ، ومعناه يبغضك .

(٣٣) العقائل : جمع العقيلة ، وهي من النِّساء : الكريمة الْمُخَدَّرة النفيسة . والمقصود بهن هنا : الحور العين . والغواني جمع الغانية وهي في اللغة المرأة الْمُستغنية بحسنها عن الزينة والأصباغ ، والمقصود بهن هنا نساء الدُّنيا .

(٣٤) الهديل : ذكَرُ الحمام . وفي أساطيرهم : الهديل فرخٌ كان على عهد نوح عليه السلام فصاده جارح من الطير ، فليس من حمامة إلا وتبكي عليه إلى يوم القيامة ! (حياة الحيوان ٤٥١/٢) .

(٣٦) قلت : الظاهر من البيت أنه يريد بالأَملاك : الملائكة ولم يَرِد هذا الجمع .

ـ وفي القاموس : الملَـكُ تجمع على ملائكـة وملائـك . وقـد تكون الأملاك تحريف (الأفلاك) : جمع فلَك وهذا يناسب النّجوم المذكورة في البيت .

[٥]

وله - رضي الله عنه -

[تبدأ القصيدة بلوم ذاتي (١ - ٦) فإن أعمال الشاعر كما يقول تقصّر عن أن تنفعه ، ولا أمل إلا في عفو الله تعالى . وانتقل إلى واعظ الشيب (٧ - ٩) الذي كاد يَزجره لولا فتنة الدنيا (١٠ - ١٣) التي يشغل حبها عن كل عمل صالح ، ومرّ على ذكر العالم الخاسر الذي تشغله الدنيا بما فيها (١٤ - ١٦) وعلى ورطة المال والنشب وعَرَض الحياة (١٥ - ٢٢) وتوقف عند أخبار من مضى من القرون (٢٣ - ٢٩) واعتبر بأحوالهم (٣٠ - ٣٢) وعقب ببيت أخير ختم به القصيدة في موضوع مُراقبة الله عز وجل] .

[من الكامل]

١	لـو كنتُ في ديني من الأَبطـالِ	مـا كُنتُ بـالـواني ولا البَطَّـالِ
٢	ولبستُ منـهُ لأْمَـةً فضفـاضـةً	مسرودَةً من صـالـحِ الأَعمـالِ
٣	لكنّني عَطَّلتُ أَقـواس التُّقَى	من نَبلِهـا فَرَمَت بِغَيرِ نِبـالِ
٤	ورمى العـدوُّ بسهمِـهِ فـأَصـابَني	إذْ لم أُحَصِّنْ جُنَّـةً لِنضـالِ !

---

(١) الوَنى : الفَترة . وناقة وانية : فاترة . والبطَّال مِنْ بطَلَ في حديثه : هَزل . ورجلٌ بطّالٌ : ذو باطل ، بيّن البطول .

(٢) اللأْمَة : الدرع .

(٤) الجُنة : ما يقي ويحمي .

٥ فـأنـا كَمَنْ يَلْقى الكتيبـةَ أَعْـزلاً	في مَـــأْزِقٍ متعرِّضـــاً لِنِـــزالِ
٦ لـولا رَجـاءُ العَفْـوِ كنتُ كنـاقِـعٍ	بَرحَ الغليـــلِ برشْفِ لَمْـــعِ الآلِ
٧ شـابَ القَـذالُ فـآنَ لي أن أرعَـوي	لــو كنتُ متَّعِظــاً بشَيبِ قَـــذالِ
٨ ولـــوَ انّني مُستَبصِر إذْ حَـــلَّ بي	لَعَلِمْتُ أَنَّ حُلـولَـــهُ تَرحـــالي
٩ فَنظَرتُ في زادٍ لِـــدارِ إقـــامَتي	وسَـأَلتُ رَبِّي أَنْ يَحُـلَّ عِقـــالي
١٠ فلكَمْ هَمَمتُ بتَــوْبـــةٍ فَمُنِعْتُهـــا	إذ لم أكن أهْـلاً لَهـــا ، وبَـــدا لي
١١ وَيَعِـــــــزُّ ذاكَ عَلَيَّ إلاَّ أنَّنيْ	مُتَقَلِّبٌ في قَبْضَـــةِ الْمُتَعـــالي
١٢ ووَصلْتُ دُنيـا سَوفَ تَقطَعُ شَأْفَتي	بــأُفـولِ أنجُمِهـا وخَسفِ هِـلالي
١٣ شَغَلَتْ مُفَتّنَ أَهلِهـــا بفُتــونِهـــا	ومِنَ الْمُحـالِ تشـاغـلٌ بمُحـالِ
١٤ لا شيءَ أخسَرُ صَفْقَـــةً مِنْ عـــالِمٍ	لَعِبَتْ بـهِ الــدُّنيـا مـعَ الْجُهّـالِ
١٥ فغَـدا يفَرِّقُ دينَـهُ أَيـدي سَبــا	ويُـزيلُـه حِرصـاً لِجَمـعِ المـالِ
١٦ لا خَيْرَ في كَسْبِ الْحَرامِ وقَلَّما	يُرْجى الْخَلاصُ لِكاسِبٍ لِحَلالِ !

---

(٥) نَوّن كلمة (أعزل) ضرورةً .

(٦) الغَليل : العطش أو شدته . ونَقَع الماء غلته : روي . والآل : السراب .

(٧) القَذال : جماع مؤخر الرأس . ومعلومٌ أن الشيب ـ عادةً ـ يبدأ بالفَوْدين من جـانبي الرأس : فإذا شاب القذال فقد استشرى الشَّيب ، وعَظم الواعظ .

(١٠) بدا له في الأمر بَداء أي نشأ لهُ فيه رأيٌ ، وقال الفرّاء : بدا لي بَداءٌ أي ظهرَ لي رأيٌ آخر . يقول الشّاعر : كم هَممتُ بـأن أتوب . فحـالت دون ذلـك حوائل ، وصرفتني عنهـا النّفس ، وزَيّن لي غير ماهممت بهِ من الخير .

(١٢) في القاموس : استأصل الله شأفتَهُ أذهبه ... أو أزاله من أصله .

(١٥) في اللسان (سبأ) : وقالوا للمتفرقين : ذهبوا أيدي سَبا ، وأيادي سبا أي متفرّقين .

١٧	مـا إنْ سَمِعتَ بِعـائـلٍ تُكـوى غَـداً	بــالنَّـــارِ جَبهَتُــهُ على الإقــلالِ
١٨	وإذا أردْتَ صَحيحَ مَن يُكوى بهـا	فــاقرَأْ عَقيبــةَ ســورةِ الأَنْفــالِ
١٩	مـــا يَثقُــلُ الميزانُ إلاّ بــــامرئٍ	قَـــد خَفَّ كاهِلــهُ مِنَ الأَثْقـــالِ
٢٠	فَخُـذِ الكَفـاف ولا تَكُن ذا فضلَــةٍ	فـالفَضْـلُ تُسـأَلُ عَنــهُ أيَّ سُؤالِ
٢١	ودَعِ الْمَطـارفَ والْمَطيَّ لأَهلِهـا	واقنَـعْ بـــأَطمارٍ ولُبسِ نِعـــالِ
٢٢	فَهُمُ وأَنتَ وفَقرُنـــا وغِنـــاهُم	لا يَستَقِرُّ ولا يَـــدومُ بِحـــالِ
٢٣	وطُفِ البِـلادَ لكَي تَرى آثـارَ مَنْ	قَـــد كانَ يَملِكُهـــا مِنَ الأَقيـــالِ

(١٧) عال : افتقر ، والعائل : الفقير .

(١٨) في سورة التوبة [٩/٣٤ ـ ٣٥] : ﴿ الذين يَكنِزون الـذَّهبَ والفضـةَ ولا يُنفقونَهـا في سبيلِ اللهِ فَبَشِّرْهم بعـذابٍ أليم . يـومَ يُحمى عليهـا في نـارِ جهنم فَتُكـوى بهـا جِبـاهُهُم وجنـوبُهم وَظُهورهم هَـذا مـا كَنَزتم لأَنفُسِكم فَـذوقوا مـا كُنتم تكنِزون ﴾ . وسورة التـوبـة تعقب سـورة الأنفال .

(١٩) الأثقال : جمع ثقل ، والمقصود به الـذنوب . وقولـه : يَثقُل الميزان أي يوم القيـامـة ، والمعنى قرآني ؛ وفي سورة الأعراف [٧/٨] : ﴿ والوزنُ يومئـذٍ الحق فَمن ثَقُلت موازينُـهُ فـأولئـك هُم المفلحون ﴾ .

(٢٠) عن أبي سعيد الخدري قـال : بينمـا نحن في سفر مع النبيِّ ﷺ إذ جـاءه رجل على راحلـة لـه فجعل يصرف بصره يميناً وشمالاً فقال رسول الله ﷺ : « من كان معـه فضل ظهر فليعـد بـه على من لا ظهر لـه . ومن كان لـه فضـل من زاد فليعـد بـه على من لا زاد لـه » فـذكر من أصناف المال ماذكر حتى رأينا أنه لا حقّ لأحد منا في فضل .

(٢١) المطارف : جمع المِطرف (بكسر الميم وضمها) وهو رداء أو ثوب من خزّ مربّع ذو أعلام .
ـ أطمار : جمع طِمر : وهو الثوب الخلق البالي .
يريد : اقنع بالثياب البالية واكتف بالمشي (كنّى عن ذلـك بعبـارة لبس النعـال) وأعرِض عن ركوب المطيّ (فعل الأغنياء والوجهاء وغيرهم) .

(٢٣) الأقيال : ـ جمع القيل ـ الملوك .

٢٤	عَصفَتْ بِهِم رِيـحُ الرَّدى فـذَرَتْهُمُ	ذَروَ الرِّيـاحِ الهـوجِ حِقفَ رِمـالِ
٢٥	وتَـزَلـزَلَتْ بِهِمُ الْمَنـابِرُ بَعْـدَ مـا	ثبتَت وكانـوا فَـوقَهـا كَجبـالِ
٢٦	واحبِسْ قَلوصَك سـاعَـةً بطُلولِهِم	واحـذَرْ عَليـكَ بِهـا مِنَ الأَغـوالِ
٢٧	فَلَكَمْ بِهـا مِن أَرقَمٍ صِـلٍّ وكَمْ	قَـدْ كانَ فيهـا مِن مَهـاً وغَـزالِ
٢٨	ولَكَم غَـدَتْ مِنها وراحَتْ حَلبـةٌ	للحَربِ يَقـدُمُهـا أَبـو الأَشبـالِ
٢٩	فَتَقَطَّعَت أَسْبـابُهُمْ وتَمـزَّقَتْ	ولَقَبْـلُ مـا كانـوا كَنَظْمِ لآلِ
٣٠	وإذا أَتَيْتَ قُبـورَهُمْ فـاسـأَلهُمُ	عَمَّـا لَقـوا فيهـا مِنَ الأَهـوالِ
٣١	فسَيُخبِرونَـكَ إن فَهِمْتَ بِحـالِهِمْ	بعبـارَةٍ كالـوَحي لا بِمَقـالِ
٣٢	إنّـا بِهـا رَهنٌ إلى يَـومِ الْجَـزا	بجَرائِمِ الأَقـوالِ والأَفعـالِ
٣٣	مَنْ لا يُراقِب رَبَّـهُ ويَخـافُـهُ	تَبَّتْ يَـداهُ ومـا لَـهُ مِن والِ

---

(٢٤) الحِقف : الْمُعوجّ من الرّمل ، أو الرمل العظيم المستدير أو المستطيل المشرف .

(٢٦) الأَغوال جمع الغول : وهو كل ماأخذ الإنسان من حيث لا يدري فأَهلكه . وتُجمع أيضاً على غيلان .

(٢٧) الأَرقم : جمعُها الأَراقم وهي الحيّات الرُّقش ، والصِّلّ : الحية التي لاتقبل الرُّقى !

(٣١) في الأَساس : أوحى إليه وأومى بمعنى . أي يخبرونك بلسان الحال لا بلسان المقال .

(٣٣) اقتباس من القرآن الكريم من سورة المسد [١/١١١] ومن سورة الرعد [١١/٣] : ﴿ وإذا أَرادَ اللهُ بقومٍ سوءاً فلا مردَّ لهُ وما لهم من دونِه من والٍ ﴾ .

[٦]

وله أيضاً ـ رحمه الله ـ

[في القصيدة حرب شعواء على الدنيا : وقد تجاوبت مفردات الشاعر وعباراته مع حرارة الغضبة على الدنيا .

بدأ الشاعر فتمنى لو يعرف خبيراً « طبّاً » يعالجه من أخطائه وجهله ، حتى إذا صَحَّ واستقامت له الطريقة . عرف : فبصق في وجه الدنيا وصرف نفسه وهمّه عن مغرياتها (١ ـ ٦) ثم التفت الشاعر إلى أحواله وقد بلغ الستين وشاب رأسه وصار على وشك سماع صوت حادي الرحيل الأخير (٧ ـ ٩) وحين يحمله أصحابه إلى الجدث (١٠ ـ ١١) سيكون هناك بين حالين لا ثالث لهما فإما طريق الجنة وإما طريق النار ، وراجع الشاعر أوراقه (١٢ ـ ١٧) وتلوَّم على ما مضى من دهره وهو غافل أو في ظل أيام الصّبا والتصابي ، وتطلع إلى التوبة النصوح التي تكفل له إطلاق سراحه من أسر الدنيا والخطايا (١٨ ـ ١٩) ووقف عند الملاذ الأخير وهو رجاء الرحمة والمغفرة (٢٠)] .

[من الوافر]

١ أَلا خَبِرٌ بِمُنتَـزِحِ النَّـواحي ... أَطِيرُ إليـهِ مَنشُـورَ الْجَنـاحِ

٢ فـأَسـأَلَـهُ وأُلطِفَـهُ عَسـاهُ ... سيـأْسُـو مـا بِـديني مِنْ جِراحِ

٣ ويَجلُو مـا دَجـا مِن لَيـلِ جَهلي ... بِنُـورِ هُـدًى كَمُنبَلِـجِ الصَّبـاحِ

(١) خَبِرٌ : مثل خبير : يقال هو خابر وخبير وخَبْر وخَبِر . ونزح وانتزح : بَعُد ، والْمُنتزح : البعيد .

(٢) أسا الجرحَ والمريضَ ، يأسوه ، أسواً وأساً : داواه .

٤ فـــأبصَـــقَ في مُحَيَّـــا أُمِّ دَفْرٍ وأهجُرُهـــا وأَدفعُهـــا براحي

٥ وأَصحُـــو مِن حُمَيَّـــاهـــا وأسلُـــو عَفـــافـــاً عن جَـــآذِرهـــا المِـــلاحِ

٦ وأَصرِفُ هِمَّتِي بـــالكُـــلِّ عَنْهـــا إلى دارِ السَّعـــادةِ والنَّجـــاحِ

٧ أَفي السِّتِّينِ أهْجَـــعُ في مَقِيلِي وحـــادي الْمَـــوتِ يُـــوقِـــظُ للرَّواحِ

٨ وقـــد نَشَرَ الـــزَّمـــانُ لِـــواءَ شَيبِي لِيَطـــوِيني ويَسلُبَني وِشـــاحِي

٩ وقـــــد سَـــلَّ الحِمَامُ عَلَيَّ نَصـــلاً سَيَقتُلُني وإن شـــاكَت سِـــلاحِي

١٠ ويَحمِلُني إلى الأَجْـــداثِ صَحبِي إلى ضِيـــقٍ هُنـــاكَ أَو انفِســـاحِ

١١ فَـــأُجـــزى الْخَيرَ إن قـــدَّمتُ خَيراً وشَرّاً إن جُـــزيتُ على اجْتِراحي

١٢ وهـــا أَنـــاذا عَلى عِلْمِي بِهَـــذا بَطيءُ الشَّـــأوِ في سَنَنَ الصَّـــلاحِ

١٣ ولي شَـــأوٌ بمَيـــدانِ الْخَطـــايـــا بَعِيـــدٌ لا يُبـــارى بـــالرِّيـــاحِ

---

(٤) استأنف الحديث في هذا البيت ، فقال : فأبصُقُ ، وقد ضبطت الأفعال التالية أيضاً بالرفع . ونصبها أجرى للسياق والمعنى .

ـ أمّ دَفر : الدنيا . والْمُحيَا : جماعةُ الوَجه ، أو حُرُّهُ .

(٥) الْحُمَيَا من الكأس : أول سَوْرتها أو شدّتُها أو أَخْذُها بالرأس .

ـ جعل الشاعر الانشغال بالدنيا كالاستغراق في سَوْرة الشراب .

ـ والجآذر جمع : الجؤذر ، وهو في اللغة : ولد البقرة الوحشية ويكثر تشبيه المرأة (الفتاة خصوصاً) بالجؤذر .

(٩) الشوكة : السلاح ، أو حِدّته . ورجل شاك السلاح وشائكه وشوكه وشاكيه : حديده . وشاك : ظهرت شَوكتُه وحدّته .

(١٠) في كشف الخفا ٢/ ٩٠ : « القبر روضةٌ من رياض الجنة أو حُفرة من حفر النار » رواه الترمذي والطبراني عن أبي هريرة ، وكلاهما بهِ مرفوعاً بسندٍ ضعيف .

(١٢) سنن الطريق : نهجه وجهته .

(١٣) الشأو : الشوط ، والمدى ، والغاية والأمد .

١٤ فَلَـــــو أَنّي نَظَرتُ بِعَينِ عَقْلي | إذن لَقَطَعتُ دَهري بِـــالنِّيـــاحِ

١٥ ولم أَسحَبْ ذُيـولي في التَّصـــابي | ولم أَطرَبْ بِغـــانيَـــةٍ رَداحِ

١٦ وكنتُ اليـومَ أَوّابـــاً مُنيبـــاً | لَعَلّي أَنْ تفـوزَ غَـداً قِـداحي

١٧ إذا مـا كُنتُ مكبـولَ الْخَطـايـا | وعـانِيَهـا فَمن لي بـالبَراحِ؟

١٨ فهَـلْ مِن تـوبَـةٍ مِنهـا نَصـوحٍ | تُطَيِّرُني وتـأْخُـذُ لي سَراحي

١٩ فَيـــا لَهفي إذا جُمِـعَ البَرايـــا | على حَرَبي لَـدَيهِمْ وافتِضـاحي

٢٠ ولَـــولا أَنّني أرجـــو إلٰهي | ورَحمَتَـــهُ يَئِستُ مِنَ الفَـلاحِ

---

(١٤) في اللسان : « ناحت المرأة تنوح نوحاً ونواحاً ونياحاً ونياحةً ومَناحَةً . وناحت عليه » .
وناحت المرأة على الميت : بكت عليه بجزعٍ وعويل .

(١٥) يقال : امرأة رداح : ضخمةُ الرِدف سمينةُ الأوراك .

(١٦) القِدح : واحد قِداح الْمَيْسِر التي كانوا يَستقسمون بها وفاز قدحه أي ربح .

(١٧) المكبول : اسم المفعول من كَبَله : قيّده بالكبل وهو الحبل الغليظ .
ـ والعاني : الأسير .
ـ والبَراح : المتّسع من الأرض (لا نبات فيه ولا شَجر) .
أراد الأرض التي يكونُ فيها طليقاً لا مقيّداً أسيراً .

(١٨) في سورة التّحريم [٦٦/٨] : ﴿ يا أيُّها الّذين آمَنوا تُوبوا إلى الله **توبةً** نَصوحاً ﴾ .
والتوبة النصوح : البالغة الخالصة ، لا يُعاود بعدها الذنب .

(١٩) في الأصل : على حِزْبي ، مضبوطة بالشكل ، ورجّحت ما أثبت ؛ والْحَرَب (بفتحتين) وبالرّاء الْمُهملة : الويل والهلاك .

[٧]

وقال أيضاً ـ رحمه الله ـ

[عالج الشاعر مشكلة انغماس الإنسان في المعصية أو مقارفته لها (١ ـ ٨) والتفت إلى الدنيا الغَدّارة ووصف غدرها بمن يركن إليها (٩ ـ ١١) ووازن بين المسوّف أُمورَ آخرته والْمُستدرِكِ لها (١٢ ـ ١٣) والتفت الشّاعر ليستجير بالله تعالى ويدعوه دعوةَ إلحاف ليجيره مما يخاف (١٤)] .

[من الكامل]

١ أَأَحُورُ عَنْ قَصْدِي وَقَدْ بَرِحَ الْخَفا ... وَوَقَفْتُ مِنْ عُمرِي القَصيرِ عَلى شَفا

٢ وأَرَى شُؤونَ العَينِ تُمسِكُ ماءَها ... ولَقَبْلَ ما حَكَتِ السَّحابَ الوُكَّفا

٣ وأَخالُ ذاكَ لِعَبرةٍ عَرَضَتْ لها ... من قَسوَةٍ في القَلْبِ أَشْبَهتِ الصَّفا

٤ ولَقَلَّ لي طُولُ البُكاءِ لِهَفوَتي ... فَلَرُبَّما شَفَعَ البُكاءُ لِمَنْ هَفا

(١) في الأساس : في المثل : بَرِحَ الْخَفاء ؛ أي : وضح الأمر وزالت خَفِيَّتُه .
ـ والشَّفا من كل شيءٍ حَرْفه ، يقال : هو على شَفا هلاك .

(٢) وَكَفَ : قَطَر ، وناقَةٌ وَكوفٌ : غزيرة .
ـ وشؤونُ العين : مَجاري الدَّمع منها .

(٣) الصَّفا جمع الصَّفاة : الحجر العريض الأملس ، وقد ورد ذكر قسوة القلب في القرآن الكريم في عدد من الآيات ومنها في سورة الزمر [٢٢/٣٩] : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ ﴾ .

(٤) هفا الرجل : سقط وذَلّ .

٥ إنَّ الْمَعــــاصي لا تُقيمُ بِمَنْـــزِلٍ إلاَّ لِتجعَـلَ مِنـهُ قــاعــاً صَفصَفـــا

٦ وَلَــوَ أنّني داوَيتُ مَعطبَ دائِهـــا بِمَراهِمِ التَّقــوى لــوافَقتِ الشِّفـــا

٧ ولعِفتُ موردَها الْمَشوبَ بِرَنقِها وغَسَلْتُ رَينَ القلْبِ في عَينِ الصَّفا

٨ وهـزَمتُ جَحفَـلَ غَيِّها بإنــابَـةٍ وسَلَلْتُ مِن نَـدَمٍ عَليهـا مُرهَفـــا

٩ وهَجرتُ دُنيــا لم تَـزَل غَـــدَّارةً بِمُـؤَمِّليها الْمُمحِضينَ لهـا الـوَفـا

١٠ سحَقتهُمُ ودِيــارَهُم سَحـقَ الرَّحـا فعَلَيهمُ وعَلى دِيـــارِهِم العَفــــا

١١ ولقـــد يُخــــافُ عليهمُ من رَبِّهمْ يَـومَ الْجَـزاءِ النَّـارَ إلاَّ إن عَفـا

١٢ إنَّ الجــوادَ إذا تَطلَّبَ غـــايـــةً بَلَـغَ الْمَـدى مِنْهـا وبَـذَّ الْمُقْرِفـا

١٣ شَتَّـــانَ بَيْنَ مُشَمِّرٍ لِمَعــــادِهِ أبـــداً وآخَرَ لا يَــزالُ مُســوِّفـــا

١٤ إنِّي دعــوتُــكَ مُلحِفــاً لِتُجيرَني مِمَّـــا أَخـــافُ فَــلا تَرُدَّ الْمُلحِفـــا

---

(٥) الصَّفصف : المستوي من الأرض لا نبـات فيـه . وفي التنزيل العزيـز : ﴿ وَيَسْـأَلـونَـكَ عَنِ الجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً . فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً ﴾ [طه ٢٠/١٠٦] .

(٧) الرَّنق : ترابٌ في المـاء من القـذى ونحـوه . والرَّين و (الرّان) الغطـاء والحجـابُ الكثيف ، والصدأ يعلو الشيء الجليّ كالسيف والمرآة ونحوهما ، والدَّنس ، والرَّين : مـا غطّى على القلب وركبه من القسوة للذَّنب بعد الذَّنب .

(١٠) عَفا الأثرُ عفاءً : هلك .

(١٢) المقرف من الفَرس وغيره : مـا يُـداني الْهَجين ؛ والْهُجْنَـة من قِبَـل الأُمّ ، والإقْراف من جِهـة الأَب . والفَرسُ الْمُقرف دون الأَصيل .

(١٤) ألحف عليه : ألح به .

[٨]

وقال ـ رحمة الله عليه ـ

[تدور القصيدة على استرسال مَنْ بلَغ درجةَ الشَّيخوخة وفي نفسه تعلق بالدنيا وأسبابها . وينبه الشاعر على سخف موقف العجوز المتصابي وأنه لا يليق به إلا الانتهاء عن الغيّ والالتفات إلى التّقوى .

بَدأ الحديث بالكلام على الشَّيب (١) واسترسالَ نَفْسِ الشّاعر مع الصَّبَوات على رغم التقدم في السّن وعلامات المشيب (٢ ـ ٣) ووصف ماأخذ الزمان من ذلك العَجوز (٤ ـ ٧) ومكابرته في طلب ما في الدنيا (٨ ـ ٩) وعدم اعتباره بفقد اللّذات (١٠ ـ ١١) وصرّح بالحديث عن ذاته ويفخر بنفسه التي استجابت له لالا للشّهوات (١٢ ـ ١٤) وختم ببيتين (١٥ ـ ١٦) في خلاص النفس وأنّ التوبة تمحو الذُّنوب] .

[من الكامل]

١ الشَّيبُ نَبَّــهَ ذا النُّهَى فَتَنبَّهــا ... ونَهى الْجَهولَ فَما استَفـاقَ ولا انتَهى

٢ بــل زادَ نفسي رغبــةً فتهــافَتَتْ ... تَبغي اللُّهى وكأنْ بِهـا بَينَ اللَّهـا

٣ فَــإلى متَى أَلهــو وأفرَحُ بــالْمُنى ... والشَّيـخُ أَقبَحُ مـا يَكـونُ إذا لَهـا

٤ مــا حُسنُــهُ إلاّ التُّقى لا أَن يُرَى ... صَبّاً بــأَلْحـاظِ الجـآذرِ والْمَهـا

(٢) اللُّهى : ج لُهية وهي العطية . واللّها جمع اللَّهاة ، وهي اللحمة الْمُشرفة على الحلق . قلت لعلّ المعنى : أنّ نفسه تتهافت في طلب العَرَض من الحياة الدنيا ، ولكنه هو يحذّرها من الموت الذي يُمكن أن يأتي بغتة (وكأَنْ بها) . وقد كرّر الشاعر هذا المعنى في مطلع قصيدة أُخرى ، فقال [القصيدة ذات الرّقم ١٠] :

كأَنّي بنفسي وهي في السَّكرات ... تعــالــج أنْ تَرْقى إلى اللَّهـواتِ

٥ أَنَّى يُقاتِلُ وهو مَفلولُ الظُّبا كابي الْجَوادِ إذا اسْتقلَّ تَأَوَّها

٦ مَحَقَ الزَّمانُ هِلالَهُ فَكأنَّما أبْقى لَهُ مِنهُ عَلى قَدرِ السُّها

٧ فَغَدا حَسِيراً يَشتَهي أن يَشتَهي ولكم جَرى طلقَ الْجَموحِ كما اشتهى

٨ إنْ أنَّ أوَّاهٌ وأجهَشَ في البُكا لِذُنوبِهِ ضَحِكَ الظَّلومُ وقَهقَها

٩ لَيسَتْ تُنَهنِهُهُ العِظاتُ ومِثلُهُ في سِنِّهِ قَدْ آنَ أن يَتَنَهنَها

١٠ فَقدَ اللِّداتِ وزادَ غَيّاً بَعدَهُم هَلاَّ تَيَقَّظَ بَعدَهُمْ وتَنَبَّها ؟

١١ يا وَيحَهُ ما بالُهُ لا يَنْتَهي عَن غَيِّهِ؛ والعُمرُ مِنهُ قد انتَهى ؟!

١٢ قد كانَ مِن شِيَمي الدَّها فتَركْتُهُ عِلماً بأنَّ مِنَ الدَّها تَركُ الدَّها

١٣ وَلَوَ انَّني أرْضَى الدَّناءَةَ خُطَّةً لَوَدِدتُ أنّي كنتُ أحمَقَ أبلَها

١٤ فلقَد رأيتُ البُلهَ قد بَلَغوا الْمَدى وتَجاوَزوهُ وازدَرَوْا بأُولي النُّهى

---

(٥) الظّبا : جمع ظبة : الطرف والحد من السيف والسنان والخنجر وما شابه ذلك .
- من معاني استقلّ : رفع ، وغضب . وهي في البيتَ تحمل معنى : نهض إلى الأمر .

(٦) محق الزمان هلاله : أي أخفاه (في المحاق) حتى لم يبق منه إلا الأثر القليل .
والمحاق : آخر الشهر (ثلاث ليال من آخر الشهر ، وقيل غير ذلك) .
- السُّها : كوكب خفي ، يمتحن به الناسُ أبصارهم .

(٧) الحسير : الذي أدركه التعب والإعياء والكلال . وقال أبو الطيب من قبل :
وشَكِيَّتي فقدُ السَّقامِ لأنَّهُ قد كان لَمَّا كان لي أعضاءُ !

(٨) جهشت نفس فلان وأجهشت : نهضت إليه وهَمَّ بالبكاء .

(٩) نهنهه عن الأمر : زجره (فتنهنه : أي فانزجر) .

(١٠) اللّدات : جمع لِدَة ، وهو المماثل في الولادة (الْمُماثِلُ في السِّنّ) .

(١٤) المقصود بالأبله هنا : الذي غلب عليه سلامة الصّدر ، وحسن الظن بالناس ؛ وفي الحديث :
أكثر أهل الجنة البُله ؛ أي البله عن أمر الدنيا لقلّة اهتمامهم بها وهم أكياس في أمر الآخرة .
ونُقل عن الزبرقان بن بدر : خير أولادنا الأبْلَهُ العَقُول ، يعني أنه لشدّة حيائه كالأبله وهو =

١٥ مَن ليسَ يَسعَى في الْخَلاصِ لِنَفسِهِ كانت سِعايَتُهُ عليها لا لها !

١٦ إنَّ الذُّنوبَ بِتَوبَةٍ تُمحَى كَما يَمحو سُجودُ السَّهوِ غَفلَةَ مَن سَها

= عقول . وقال أحمد بن حنبل في تفسير (استراح البُله) قال هم الغافلون عن الدنيا وأهلها وفسادهم وغلّهم فإذا جاؤوا إلى الأمر والنهي فهم العقلاء الفقهاء .

(١٥) لم ترد « سعاية » مصدراً لسعى بمعنى : عمل أو مضى أو كسب . (انظر اللّسان : سعى) .

(١٦) السهو في اللغة : نسيانُ الشيء والغفلة عنه .

ـ ومعنى سَها في الصَّلاة : نَسِيَ شيئاً منها .

ـ وسجود السَّهو (كما في معجم لغة الفقهاء : ٢٤٢) سجدتان كسجود الصَّلاة تؤدَّيان في آخر الصَّلاة عند حدوث سهو أو شكٍّ في الصَّلاة .

[٩]

وقال أيضاً ـ رضي الله عنه

[ينطلق الشاعر من بلوغ المرء سنّ الستين (وهو يخاطب مجهولاً : (يصحّ أن يكون يخاطب نفسه ويصحّ أيضاً أن يكون الخطاب عامّاً) . فسِنُّ الستين نذيرٌ بالنهاية (١ ـ ٢) والموت يرصد ويترقب فلا معنى للغفلة عنه (٣ ـ ٤) ويكونُ الزّمن قد أثّر في جسد الإنسان وأعضائه (٧) وفي نزعاته ورغباته ، فالزّمن يؤثر في كُلّ شيء (٨ ـ ١٠) . وفي منزِل الفناء : (الدنيا) رحى الموت تطحنُ كل حيّ (١١ ـ ١٢) ولكن الإنسان ـ في العادة ـ يستغرقُ في غفلته (١٣ ـ ١٤) .

ويلوذ الشاعر أخيراً برحمة الله الواسعة ، والشفاعة المرجوّة (١٥ ـ ١٨)] .

[من الخفيف]

١ قـدْ بلغتَ السِّتِّينَ ويحَكَ فاعلَمْ ... أنَّ ما بَعْدَها عَلَيكَ تَلَوُّمْ

(١) في وقوف الشاعر عند سنّ الستين مَلْمَحٌ من أحاديث نبوية . وفي حديث أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال : « أعمار أُمّتي مابين الستين إلى السبعين ، وأقلهم من يجوز ذلك » رواه ابن ماجه ١٤١٥/٢ ، وفي حديث طويل عن أنس بن مالك أنّ الرجل المسلم : « إذا بلغ الستين رزقه الله إنابةً يحبّه عليها .. » مُسند أحمد ٨٩/٢

ـ في القاموس وغيره : تلوّم على الأمر : تلبث عليه ، وانتظر وتمكث . =

٢	فــإذا مــا انقضَتْ سِنُــوكَ وولّت	فصَــلَ الحــاكِمُ القَضــاءَ فــأبرَمْ
٣	أنتَ مِثــلُ السِّجِــلِّ يُنشَرُ حِينــاً	ثمَّ يُطــوى من بَعْــدِ ذاكَ ويُختَمْ
٤	كيفَ يَلتَــذُّ بــالْحَيــاةِ لَبيبٌ	فــوَّقَتْ نَحــوَهُ الْمَنيَّــةُ أسهمْ
٥	ليسَ يَـدْري مَتى يُفاجيـهِ مِنها	صــائِبٌ يَقصِفُ الظُّهُــورَ ويَقصِمْ
٦	مــالِغُصني ذَوَى وكانَ نَضيراً	ولِظَهري انحَنَى وكانَ مُقَــوَّمْ
٧	ولِحَــدّي نَبــا وكانَ مُبيراً	ولِجَيشي انثَنَى وكانَ عَرَمْرَمْ
٨	ولِــدَهري أدالَ شَرخَ شَبــابي	بِمَشِيبٍ عِنــدَ الْحِســانِ مُــذَمَّمْ
٩	فــأنــا اليــومَ عَن هــواهُنَّ ســالٍ	وقَــديمــاً بِهِنَّ كُنتُ مُتَيَّمْ !
١٠	لـو بِرَوقِ الـزَّمـانِ يُنطَحُ يومــاً	ركنُ ثَهــلانَ هَــدَّهُ فَتهــدَّم
١١	نحنُ في مَنزِلِ الفَنــاءِ ولكِن	هُــوَ بَــابٌ إلى البقــاءِ وسُلَّمْ
١٢	ورَحَى الْمَــوتِ تَستَــدِيرُ عَلَينــا	أبَــداً تَطْحَنُ الْجَميــعَ وتَهشِمْ

= وأنشد ابن عبد البرّ القرطبي (ت ٤٦٣) لرجل لم يُسَمِّه (بهجة المجالس ٢/٢٩٠)

ليت شعري وما انتظاري وقد لا ... ح مشيبٌ بعــارضي وقُروني

يـا ابن ستين مـا اعتـذارك من بعـ ... ـدِ بلـوغ الأشـدّ والستين ؟!

(٣) السجلّ : الكتاب وفي البيت اقتباسٌ من الأُسلوب القرآني .

في سورة الأنبياء [٢١/١٠٤] : ﴿ يومَ نَطوي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ للكُتُبِ ﴾ .

(٤) الفُوق : موضع الوتر من السهم ؛ وفوّق السهم : جعل الوتر في فُوقه عند الرمي (انظر ص ٣٣) .

(٧) العرمرم : الكثير من كل شيء ، أو الشديد من كل شيء ، ومنه : جيش عرمرم .

(٨) الإدالة : الغلبة ، وقوله : أدال شرخ شبابي بمشيب ، المقصود : أنه ذهب بالشباب وعوض منه مشيبا .

(١٠) الروق (روق الثور) : القرن . وثهلان : جبل .

(١١) منزل الفناء : كناية عن الحياة الدنيا .

١٣ وأنـــا مُـوقنٌ بـــذاكَ عَليمٌ وفِعَـــالي فِعـــالُ مَنْ لَيسَ يَعلَمْ

١٤ وكـــذا أمتَطِي الهُـوَينـــا إلى أن أتَـوَفَّى فَعِنْـدَ ذٰلِـكَ أَنْـدَمْ!

١٥ فَعَسَى مَن لَـــهُ أُعَفِّرُ وَجهي سَيَرَى فَـــاقتِي إلَيـــهِ فَيَرحَمْ

١٦ فَشَفِيعي إليـــه: حُسنُ ظُنـوني ورجـــائِي لَـــهُ، وأنّيَ مُسلِمْ

١٧ ولَـهُ الْحَمـدُ أنْ هَـدَاني لِهـذا عَـــدَدَ القَطرِ مـــاالْحَمامُ تَرنَّمْ

١٨ وإلَيـــهِ ضَراعَتِي وَابْتِهَـــالِي في مُعَـــافـــاةِ شَيبَتِي مِن جَهَنَّمْ

---

(١٤) معنى الهوينى في اللغة: التؤدة والرفق والسكينة والوقار، ويريد الشاعر أن الإنسان طويل الأمل، فهو يتثاقل في طلب الآخرة ويرجئ ويؤجل ويُسَوِّف، غفلةً منهُ واسترسالاً.

(١٨) في كشف الخفا (٢٤٤/١) الحديث: «إن اللهَ يستحي أنْ يُعذِّبَ شيبةً شابت في الإسلام». هكذا ذكره الغزالي في الدرة الفاخرة. ورواه السيوطي في الجامع الكبير عن ابن النجار بسند ضعيف بلفظين آخرين أحدهما: «إن الله ليستحي من عبده وأمته يشيبان في الإسلام يعذبها».

[١٠]

وقال ـ رحمه الله ـ يندب نفسه ويُذَكِّرها الْمَعاد

[الخيط الناظم لهذه القصيدة هو ذكر الموت وما يكون معه وبعده ، وذكر أحوال القبر ويوم الْمَعاد .

وهي قصيدةٌ تُشرِف بالقارئ على أهوال الموت ، وتذكّره بأحوال الآخرة .

يصوِّر الإلبيري في قصيدته آخر ساعات ابن آدم في الدنيا وأول ساعاته في الآخرة ، ويصف ما يكون عليه حال الجسد بعد الموت (١ ـ ٤) وحال القبر ، وصاحبه هو في ضيق أو في فُسحة (٥ ـ ١٢) ويعترضُ بذكر ذنوبه ويضخّمها على عادته (١٣ ـ ١٦) ويذكر أحوال الموت والميِّت (١٧ ـ ٢١) ويذكر النعش خاصّة (٢٢ ـ ٢٣) ويميِّز بين صالح الأعمال وسيِّئها (٢٤ ـ ٢٩) ويعود إلى الموت ، ثم يقيم الشاعر حواراً مع أصحابه ويسألهم أن يرفقوا به عند وفاته (٣٠ ـ ٣٨) . ويرجع إلى الله تعالى طالباً العفو ، ساجداً له سجود تعظيم ، مقدّماً بين يدي لقاء الآخرة طاعته واستغفاره] .

[من الطويل]

١ كأنِّي بِنَفْسِي وهيَ في السَّكراتِ تُعالِجُ أن تَرقَى إلى اللَّهَواتِ

---

(١) السّكرات هي سكَراتُ الْمَوت ، وقد ورَد ذِكرُ (سكرة الموت) في القرآن الكريم في سورة ق [١٩/٥٠] ﴿ وجَاءَتْ سكرةُ الْمَوتِ بالْحَقِّ .. ﴾ أي غشيته وشدّته .

٢	وقــد زُمَّ رَحلي واستَقلَّتْ ركائِبي	وقَـد آذَنتني بـالرَّحيـلِ حُـداتي
٣	إلى مَنزِلٍ فِيـهِ عَـذابٌ ورحمـةٌ	وكَم فيـهِ مِن زَجرٍ لَنَـا وعِظَـاتِ
٤	ومن أعيُنٍ سَالَتْ على وَجَنـاتِهـا	ومِن أوجُـهٍ في التُّراب مُنعَفِراتِ
٥	ومن واردٍ فيـهِ عَلَى مـا يَسُرُّهُ	ومِن واردٍ فيـهِ عَلى الْحَسَراتِ
٦	ومِن عـاثِرٍ مـاإن يُقَالُ لـه: لَعـاً	على مـاعَهِـدنَـا قَبلُ في العَثَراتِ
٧	ومِنْ مَلِـكٍ كانَ السُّرُورُ مِهَـادَهُ	مـع الآنِسَـاتِ الْخُرَّدِ الْخَفِراتِ
٨	غَدا لا يَذُودُ الدُّودَ عَن حُرِّ وَجهِـهِ	وكانَ يَـذُودُ الأُسـدَ في الأَجَماتِ
٩	وعُـوِّضَ أُنْسـاً مِنْ ظِبَـاءِ كِنـاسِـهِ	وأرآمِـهِ بـالرُّقْشِ والْحَشَراتِ

وقول الشاعر: «تعالج أن ترقى إلى اللهوات» يعني الرّوح. واللهوات جمع اللهاة: وهي أقصى الفم، واللحمة المشرفة على الحلق، والمقصود مخرج النفس! والمعنى قرآني مقتبس من سورة القيامة [٢٦/٧٥] ﴿ كلا إذا بَلغتِ التَّراقي ﴾. أي بلغت الرُّوح أعالي الصَّدْر وحشرجت.

(٢) زمّ الشيء: شدّه.

والركائب جمع الركاب: وهي الإبل يُسَارُ عليها، ومعنى استقلّت: سارت، يقال: استقل القوم: أي ذهبوا واحتملوا سائرين وارتحلوا، والحداة: جمع الحادي.

(٣) سبق الأثر المشهور: «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة ... إلخ» راجع فهرس الأحاديث النبوية.

(٦) في الأساس: لعاً لك: دعاء بالانتعاش.

(٧) الخرد: جمع خريدة: وهي البِكر أو الْخَفِرة، الطويلة السكوت، الخافضة الصوت، المتسترة.

(٩) أرآم جمع رئم: الظبي الخالص البياض. والرُّقش جمع الرقشاء: وهي الحية، وسميت بذلك لرقشة جلدها.

١٠	وصـارَ ببَطنِ الأرْضِ يَلتَحِفُ الثَّرى	وكانَ يَجُرُّ الـــوَشْيَ وَالْحِبَرَاتِ
١١	وَلَم تُغْنِـهِ أنصـارُهُ وَجُنـودُهُ	ولَمْ تحمِـهِ بـالبِيضِ والأسَـلاتِ
١٢	ومِمَّـا شَجَـاني ـ والشُّجـونُ كَثيرَةٌ ـ	ذُنـوبٌ عِظَـامٌ أسْبَلَت عَبَراتي
١٣	وأقلَقَنِي أنِّي أمُـوتُ مُفَرِّطـاً	عَلَى أنّني خُلِّفْتُ بَعْـدَ لِـدَاتي
١٤	وأغفلتُ أمرِي بَعـدَهُم مُتَثَبِّطـاً	فَيـا عَجَبـاً مِنِّي ومِن غَفَـلاتي
١٥	إلى اللهِ أشكُـو جَهـلَ نَفسِي فـإنَّهـا	تَمِيـلُ إلى الرَّاحـاتِ والشَّهـواتِ
١٦	ويـا رُبَّ خِـلٍّ كُنتُ ذا صِلَـةٍ لَـهُ	يَرَى أنَّ دَفني مِن أَجَـلِّ صِـلاتي
١٧	وكنتُ لَـهُ أُنسـاً وشمسـاً مُنيرَةً	فَـأَفرَدَني في وَحشَـةِ الظُّلُماتِ
١٨	سأضْرِبُ فُسْطاطي على عَسْكَرِ البِلى	وأَرْكُـز فيـهِ لِلنُّـزولِ قَنـاتي
١٩	وأركبُ ظَهراً لا يَـؤُوبُ براكِبٍ	ولا يُمتطَى إلاَّ إلى الْهَلَكاتِ

(١٠) الْحبرات جمع الحبرة : وهي ثوبٌ من قطن أو كتان مخطط كان يُصنع باليمن .

(١١) البيض : السُّيوف ، والأسلات جمع الأسلة : وهي من النصل مستدقّه .
والأَسَل : الرّماح الطوال ، (والمفردة أَسَلة) .

(١٤) يُقال في الفِعل : ثَبَّطَهُ (وثبَطَه بالتخفيف) أي ريَّثه ، وثبّته ، وشغله .

(١٦) للطَّبراني عن ابن عمر (رضي الله عنهما) مرفوعاً : « إذا مات أحدكم فلا تحبسوه وأسرعوا به إلى قبره » . وفي لفظٍ لـه : « من مـات في بكرةٍ فلا تقيلوه » (أي لا تتركوه إلى وقت القائلة : نصف النهار) .
وأورد العجلوني أقوالاً أُخر في إيضاح العبارة المشهور « إكرام الميت دفنه » .
ـ وقول الشاعر : (كنت ذا صلةٍ له) أي كان يصله ويبرّه ويحسن إليه .

(١٨) الفُسطاط : مجتمع أهل المنطقة ، والسُّرادق من الأبنية ، والشاعر يشير إلى الرحلة الأخيرة إلى القبر .

(١٩) الإشارة واضحة إلى النَّعش .

٢٠	وليسَ يُرى إلاّ بِسـاحَـةِ ظـاعنٍ	إلى مَصرَعِ الفَرْحـاتِ والتَّرَحـاتِ
٢١	يُسَيِّرُ أدنى النّـاسِ سَيراً كسَيرِهِ	بـأرفـعِ مَنعِيٍّ مِنَ السَّرَواتِ
٢٢	فطوراً تراهُ يَحمِلُ الشُّمَّ والرُّبا	وَطَوراً تراهُ يَحمِلُ الْحَصَياتِ
٢٣	وَرُبَّ حَصاةٍ قَدرُها فَوقَ يَذْبُلٍ	كمقبولِ ما يُرمَى مِنَ الْجَمَراتِ
٢٤	وكُلُّ صَغيرٍ كانَ للهِ خالِصاً	يُرَبِّي عَلى ما جاءَ في الصَّدَقاتِ
٢٥	وكُلٌّ كَبيرٍ لا يَكونُ لِوَجهِهِ	فَمِثلُ رَمادٍ طارَ في الْهَبَواتِ
٢٦	ولكنَّهُ يُرجى لِمَنْ ماتَ مُحسِناً	ويُخشى على مَن ماتَ في غَمراتِ
٢٧	وما اليومَ يُمتازُ التَّفاضُلُ بَينَهُم	ولكنْ غَداً يُمتازُ في الدَّرَجاتِ
٢٨	إذا رُوِّعَ الخاطي وطارَ فُؤادُهُ	وأُفرِخَ رَوْعُ البَرِّ في الغُرُفاتِ

(٢١) السَّروات جمع السراة ؛ والسَّرْو : مروءة في شرف .

(٢٣) يَذْبُل : جبل من جبال بلاد العرب .

ـ والإشارة واضحة إلى رمي الجمار في منى .

(٢٤) في التنزيل العزيز : ﴿ يمحقُ اللهُ الرِّبا ويُربي الصَّدقات واللهُ لا يُحبُّ كلَّ كفارٍ أثيم ﴾ [البقرة : ٢/٢٧٦] .

قال القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن (٣/٣٦٢) : « ويربي الصدقات : أي ينَميها بالبركة في الدنيا ويكثر ثوابها بالتضعيف في الآخرة . وفي صحيح مسلم : إن صدقة أحدكم لتقع في يد الله فيربّيها له كما يُربّي أحدكم فلوه أو فصيله حتى يجيء يوم القيامة وإن اللقمة لعلى قدر أُحد » .

(٢٥) الهبوات : جمع الْهَبْوَة : الغبرة .

(٢٦) غمرة الشيء : شدته ومزدحمه .

(٢٧) امتاز : انفرد .

(٢٨) في الأساس : من المجاز أفرخ روعك : أي خلا قلبك من الهم (خلو البيضة من الفرخ) . والمراد في أفرخ روعك (بفتح الراء) زوال ما يتوقعه المرتاع . وإذا زال ذلك انقلب الروعُ أمناً .

٢٩ وما يَعرِفُ الإنسانُ أينَ وَفاتُهُ أَفي البَرِّ أم في البَحرِ أم بِفَلاةِ
٣٠ فَيا إخوَتي مَهما شَهِدتُم جَنازَتي فَقوموا لِرَبِّي واسْأَلوهُ نَجاتي
٣١ وجِدُّوا ابتِهالاً في الدُّعاءِ وأَخلِصوا لَعَلَّ إلَهي يَقْبَلُ الدَّعَواتِ
٣٢ وَقولوا جَميلاً إن عَلِمْتُمْ خِلافَهُ وأَغضُوا على ما كانَ مِن هَفَواتي
٣٣ ولا تَصِفوني بالَّذي أنا أَهْلُهُ فَأَشْقى وحَلُّوني بِخَيْرِ صِفاتِ
٣٤ ولا تَتَناسَوْني فَقِدماً ذَكَرتُكُمْ وَواصَلْتُكُمْ بالبِرِّ طولَ حَياتي
٣٥ وبالرَّغمِ فارَقْتُ الأَحِبَّةِ منكُمُ وَلَمَّا تُفارِقْني بِكُمْ زَفَراتي
٣٦ وإن كُنتُ مَيْتاً بَينَ أَيديكُم لَقًى فَروحيَ حَيٌّ سامِعٌ لِنُعاتي
٣٧ أُناجيكُمُ وَحْياً وإنْ كنتُ صامِتاً ألا كُلُّكُمْ يَوماً إليَّ سَياتي
٣٨ وَلَيسَ يَقومُ الجِسمُ إلاَّ بِروحِهِ هوَ القُطبُ والأَعضاءُ كالأَدَواتِ
٣٩ وَلا بُدَّ يَوْماً أَن يَحورَ بِعَينِهِ لِيُجزَى عَلى الطَّاعاتِ والتَّبِعاتِ
٤٠ وإلاَّ أَكُن أَهْلاً لِفَضْلٍ ورَحْمَةٍ فَرَبِّيَ أَهلُ الفَضلِ والرَّحَماتِ
٤١ فَما زِلْتُ أَرْجو عَفوَهُ وجِنانَهُ وَأَحْمَدُهُ في اليُسْرِ والأَزَماتِ

---

(٢٩) المعنى من قوله تعالى : ﴿ وما تَدْري نَفْسٌ بأَيِّ أرضٍ تَموت ﴾ [لقمان ٣١/٣٤] .

(٣٠) ترد (مهما) في استعمال الأندلسيين لمعنى الزمان والشرط أو تخلص للظرفية الزمانية ـ وقال ابن مالك : إن معنى الزمان والشرط مما أهمله النحويون وأنكره عليه ابن هشام في المغني (٣٦٨/١) والراجح ماقاله ابن مالك . وتنظر المناقشة في المغني .

(٣٢) في حديث ابن عمر عن رسول الله ﷺ : « اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم » (الفتح الكبير ١٦٣/١) .

(٣٦) رجل لقى وملقى بمعنى . (في الخير والشر) .

(٣٧) الوحي هنا : الرمز والإشارة : أي هو يناجيهم بلا كلام (بالعِبْرَة) .

(٣٩) الحور : الرجوع .

٤٢ وأَسْجـدُ تَعْظيمـاً لَـهُ وتَـذَلُّـلاً وأَعبُـدُهُ في الْجَهرِ والْخَلَـواتِ

٤٣ وَلَستُ بِمُمتَنٍّ عَلَيـهِ بِطـاعَتي لَـهُ الْمَنُّ في التَّيسِيرِ للْحَسَنـاتِ

---

(٤٣) في سورة الحجرات [١٧/٥٠] : ﴿ يمنّونَ عليكَ أَنْ أَسلموا ، قُلْ : لاتمنّوا عليَّ إسلامكم بل اللهُ يمنُّ عليكم أنْ هَداكُم للإِيمانِ إن كنتم صادقين ﴾ .

[١١]

وقال أيضاً ـ رحمه الله ـ يعرِّض برجل من الفقهاء كان يطلب الكيمياء(☆)

[المقصود بطلب الكيمياء في هذه القصيدة محاولات القدماء تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة بمعالجات معقدة ذات تكاليف : كانوا يُنفقون فيها الوقت والمال بلا جدوى . وقد عَدّ الشاعر مثل هذا العمل مجرّد شهوة لتكثير المال والانشغال بالعَرَض ؛ وجعل هذا مَدْخَلاً إلى قصيدته التحذيريّة من شهوات النفس .

يبدأ بالحديث عن النفس وميلها إلى (الباطل) وإلهائها الإنسان بلذّة عارضة (١ ـ ٣) ويلتفتُ باحثاً عن الحازم العالم العامل (٤ ـ ٧) واصفاً الورع المتّقي (٨ ـ ٩) ويظهر الشاعر باحثاً عمّن يستأهل النصيحة الغالية من رجل يقظ واع (١٠ ـ ١٤) ويخاطب الذي ألهته الدُّنيا وغفل عن الآخرة ، ويقدّم له الأدلّة العقليّة المتعدّدة على صنع الصانع المدبّر (١٥ ـ ٢١) . وهي أدلة يهتدي بها الفاضل المخلص ولا تغيب عن قلب المؤمن العاقل (٢٢ ـ ٢٣)] .

(☆) الكيمياء : « علم يعرف به طرق سلب الخواص من الجواهر المعدنية وجلب خاصة جديدة إليها . قال : وذكر الصفدي الاختلاف في شأنه بين مُقر لهذا العلم ومنكر له .. وذكر يعقوب الكندي في رسالته تَعَذُّرَ فعل الناس لِما انفردت الطبيعةُ بفعله ، وخدع أهل هذه الصّناعة وحيلهم . وأبطل دعوى الذين يدّعون صنعَة الذهب والفضة » . (كشف الظنون : ١٥٢٦/٢ ـ ١٥٣٣) .

[من السريع]

١	مــا أَمْيَــلَ النَّفْسَ إلى البَــاطِــلِ	وأَهْــوَنَ الــدُّنيــا عَلَى العــاقــلِ
٢	تُرْضِي الفَتَى في عــاجِــلٍ شَهْــوَةٌ	لــوخَسِرَ الْجَنَّـــةَ في الآجِـــلِ
٣	يَبيــعُ مــا يَبْقَى بِمَــا يَنْقَضِي	فِعْلَ السَّفيــهِ الأحْمَقِ الجــاهِـلِ
٤	يــا مَنْ رأى لِي واصِــلاً مُرْشِــداً	وإنَّنِي أكْلَفُ بِــالــواصِــلِ
٥	يــا مَنْ رأى لِي عــالِماً عــامِــلاً	فــألْـزَم الْخِــدْمَــةَ للعــامــلِ
٦	أمْ مَنْ رأى لي عــالِماً ســاكِتــاً	وعَقْلُــهُ في عـــالَمٍ جــائـــلِ
٧	يَسْرَحُ في زَهْرِ رِيــاضِ النُّهى	ليسَتْ كَرَوْضٍ مَــاحِــلٍ ذابــلِ
٨	يــا رُبَّ قَلبٍ كَجَنــاحٍ هَفَتْ	قــد غــابَ في بَحرٍ بِلا ســاحِــلِ
٩	يُصَرِّفُ الْخَطرةَ مَـــذعُـــورةً	مِمَّــا يَرى مِن مَنظَرٍ هـــائــلِ

(١) في كتـاب الأغـاني (٢٢/١١٦) : كان معـاويـة يتمثل كثيراً إذا اجتمع النـاس في مجلسه بهذا الشعر :

إنّـا إذا مــالت دواعي الهــوى	وأنصتَ السَّـامعُ للقــائــلِ

...(الأبيات) .

وكان عبد الملك بن مروان إذا جلسَ للقضاء بين الناس أقام وصيفاً على رأسه يُنشده :

إنّـا إذا مــالت دواعي الهــوى	وأنصت الســامـع للقــائــلِ
واصطرع القــومُ بــألبـابهم	نقضي بحكمٍ عــادلٍ فــاصــلِ
لانجعـل البــاطــل حقّــاً ولا	نُلـطَ دون الحـقّ بــالبــاطــلِ
نخــافُ أن تسفــهَ أحـلامُنــا	فتخمـلَ الـدهرَ مـع الخــامــلِ

ثم يجتهد عبد الملك في الحقّ بين الخصمَيْن .

(٣) السَّفيه : من يبذر أمواله فيما لا ينبغي .

(٤) كَلِف بالشيء : أُولع به ولهج .

(٨) هفا : أسرع ؛ وهفا الطّائر خفق بجناحيه . قال في اللسان : « جَمْعُه أجنحـة وأجنح ، حكى =

١٠	آهٍ لِسِرٍّ صُنْتُهُ لَم أجِدْ	خَلْفاً لَهُ قَطُّ بِمُسْتاهِلِ
١١	هَل يَقُظٌ يَسأَلُني عَلَّني	أكشِفُهُ لِليَقُظِ السَّائلِ
١٢	قد يَرحَلُ المرءُ لِمَطلُوبِهِ	والسَّببُ الْمَطلُوبُ في الرَّاحِلِ
١٣	لو شُغِلَ الْمَرءُ بِتَركيبِهِ	كانَ بِهِ في شُغُلٍ شاغِلِ
١٤	وعايَنَ الحِكْمَةَ مَجْمُوعَةً	ماثِلَةً فِي هَيكَلٍ ماثِلِ
١٥	يا أيها الغافِلُ عن نفسِهِ	وَيْكَ أفِقْ من سِنَةِ الغَافِلِ
١٦	وانظُرْ إلى الطَّاعَةِ مَشهُورَةً	في الفَلَكِ الصَّاعِدِ والنَّازِلِ
١٧	وَالْحَظْ بِعَيْنَيْكَ أديمَ السَّمَا	مِن طَالِعٍ فيها ومِن آفِلِ
١٨	كُلٌّ عَلى مَسلَكِهِ لا يُرَى	عَن ذلِكَ الْمَسلَكِ بالمائِلِ
١٩	لو دَبَّرَتْ أنفُسَها لم تَغِب	واطَّلَعَ الناقِصُ كالكَامِلِ
٢٠	وانظُرْ إلى الْمُزْنَةِ مَشحُونَةً	مُثقَلَةَ الكاهِلِ كالبازِلِ
٢١	تَحِنُّ مِن شَوقٍ إلى وَقفَةٍ	أو خَطرَةٍ بالبَلَدِ الماحِلِ
٢٢	يا لَكَ بُستانَ عُقولٍ بَدا	لِعينِ قَلبِ الْمؤمِنِ العاقِلِ
٢٣	فَسِرُّ هذا الشَّأنِ لا يَنجَلي	إلاَّ لِعَبدٍ مُخلِصٍ فاضِلِ

= الأخيرة ابنُ جِنّي وقال : كسَّروا الجناح - وهو مذكر - على أفعُل وهو من تكسير المؤنث لأنهم ذهبوا بالتكسير إلى الرِّيشة » . وقوله : « كسَّروا » أي جمعوا الكلمة جمع تكسير .

(١٠) آه أوها ، وأوّه تأويهاً : قالها ؛ (كلمة آه) .

(١١) يقال رجل يقظ ، بضم القاف وكسرها .

(١٤) كذا رُتبت الأبيات في الأصل ، وفي الروض المعطار . ويتسلسل الشعر منسوقاً لو تقدّم البيتُ الخامس عشر على سابقه . وعندها يكون (عاينْ) فعل أمر .

(٢) المزنة : تجمع على المزن . وهو السّحاب ذوالماء .

- والبازل : البعير الذي بلغ تسع سنين (وأصله من بزل البعير أي فطر نابه وطلع) .

[١٢]

وله أيضاً ـ رضي الله عنه ـ:

[تتسع رقعة الْخِطـاب في هـذه القصيـدة القصيرة ؛ فـالْمُخَـاطب منها هو الإنسان ؛ وهو مـدعوٌّ إلى التفكير في آلاء الله تعـالى في خلقـه ، وهي آيات تهدي إلى الحقّ والْهدى (١ ـ ٣) .

ويُثني الشاعر على الأكياس (وهم الذين اهتدوا وآمنوا) الذين ساحوا في حبّ الله تعـالى ، وجـالت عقـولهم في آلائـه ، وتـدبّروا عجـائب الخلق وركبوا بحار الفهم فوصلوا إلى شاطئ السّلامة (٤ ـ ٧)] .

[من الكامل]

١	أنتَ الْمُخَـاطَبُ أيُّهـا الإنْسـانُ	فـأصِخْ إليَّ يَلُـحْ لَـكَ البُرهـانُ
٢	أُودِعْتَ مـالَـوقُلتَـهُ قُلتَ لي:	«هـذا لعَمرُكَ كلُّـهُ هَـذَيـانُ»
٣	فانظُر بِعَقْلِكَ مِن بَنـانِكَ واعتَبِر	إتقَـانَ صَنْعَتِـهِ فَثَمَّ الشَّـانُ!
٤	للهِ أكيَـاسٌ جَفَـوا أوطـانَهُمْ	فـالأرضُ أجمَعُهـا لَهُم أوطـانُ
٥	جـالَت عُقُـولهم مَجـالَ تَفكُّرٍ	وتَـدَبُّرٍ فَبَـدا لَهـا الكِتمـانُ
٦	ركِبَت بِحَـارَ الفَهمِ في فَلَـكِ النُّهى	وجَرى بهـا الإخـلاص والإيمـانُ
٧	فَرَسَت بِهِم لَمّـا أتـوا مَحبُـوبَهُمْ	مَرسًى لَهُم فِيـهِ غِنًى وأمـانُ

(١) أصاخَ : استمعَ وأنصتَ .

(٢) أي أُودع في الإنسان من الأسرار وعجائب الخلق والتقدير ما يُذْهِلُ العُقُول .

[١٣]

وقال أيضاً ـ رضي الله عنه ـ وكان دَخَلَ عليه ابنُ أبي رجاء(☆) في علّته التي توفي فيها ، فعذَله على رداءة مسكنه ، فقال ـ وهو آخر شعر قاله ـ :

[أثارت عبارة الوزير العائد شجون الشاعر الزاهد ، الذي عاش حياته يدعو إلى أن يكتفي الإنسان من متاع الدنيا بما هو ضروري وأن يُعرض عن كل زيادة على ذلك .

يبدأ الشّاعر بحديث داره المتواضعة ورضاه بها ، ويستغرب أن يطلب الإنسان فوق دارٍ توفّر الوقاية والحماية والسّتر . وهو يريد ألاّ يغالي الناس في البنيان ، ولا يجعلوا ذلك همّهم الطويل (١ ـ ٥) ويذكّر الشاعرُ السامع والقارئ بالقَبْر واعظاً صارخاً ـ وإن كان من تُراب وصخر ـ ويحذّر المسترسلين وراء متع الحياة الزائلة من الأثاث الفاخر والرّياش والقصور والنساء (٦ ـ ١١) ، ويتحدث بلسان القبر واعظاً منبّهاً (١٢ ـ ١٣)] .

(☆) ابن أبي رجاء : الوزير أبو خالد هاشم بن ابي رجاء الإلبيري . قال لسان الدين : « كان من عظماء أهل إلبيرة وسادتهم ، وهو الذي عاد الفقيه الزاهد أبا إسحاق بن مسعود الإلبيري في مرضه وعذله على رداءة مسكنه ، وقال له : لوسكنت داراً خيراً من هذه لكان أولى لك ، فأجابه رحمه الله بقوله :

« قالوا ألا تستجيد بيتا ... القصيدة » .

(الإحاطة : ٣١٧/٤ ، ونفح الطيب : ٤٩١/٣) .

[من مخلّع البسيط]

١	قــالُـوا ألا تَسْتَجِــدُّ بَيْتــاً	تَعْجَبُ مِنْ حُسْنِــهِ البُيــوتْ
٢	فَقُلتُ مــاذلِكُمْ صَــوابٌ	حَفشٌ كَثِيرٌ لِمَن يَمُــوتْ
٣	لــولا شِتــاءٌ ولَفْـحُ قَيــظٍ	وخـوفُ لِصٍ وحِفــظُ قُــوتْ
٤	ونِســــوَةٌ يبتَغِينَ سِتْراً	بَنيتُ بُنيَــانَ عَنكَبُــوتْ
٥	وأيُّ معنى لِحُسنِ مَغنى	لَيْسَ لأربــابِــهِ ثُبُـوتْ
٦	مــاأوعــظَ القَبرَ لـوقَبِلنَــا	مَـوعِظَــةَ النَّــاطِـقِ الصَّـوتْ
٧	يُـوحِي إلى مُمتَطِي الْحَشــايــا	مــالَــكَ عَنْ مَضجَعي عَميْت ؟
٨	نَسيتَ يَــومِي وطَــولَ نَــومِي	وسَــوفَ تُنسَى كَمَــا نَسِيتْ
٩	وشِــدتَ يــاهــادِمي قُصـوراً	نَعمتَ فِيهِنَّ كَيفَ شِيتْ
١٠	مُعتَنِقــاً لِلْحِسَــانِ فِيهــا	مُستَنشِقــاً مِسْكَهــا الفَتِيتْ
١١	تَسحَبُ ذَيــلَ الصِّبــا وتَلهُــو	بــآنِســاتٍ يَقُلْنَ : هِيْتْ

(١) في ترجمة سفيان بن عيينة في حلية الأولياء [٢٧٣/٧] :
« وقيل له (أي للمسيح عليه السلام) : ألا تتزوج ؟ قال : أتزوّجُ امرأةً تموت ؟ وقيل لـه : ألا تَبني بيتاً ؟ قال : إنّي على طريق السّبيل ! » .

(٢) الحفشُ : البيت الصّغير جداً .

(٤) يضرب المثل بوهاء نسيج العنكبوت ، قال تعالى في سورة العنكبوت [٤١/٢٩] : ﴿ مثلُ الـذين اتَّخـذوا من دونِ اللهِ أوليـاء كمثلِ العنكبـوتِ اتخـذتْ بيتـاً وإنَّ أوهنَ البيـوتِ لَبَيْتُ العنكبوتِ لو كانوا يَعلمونَ ﴾ .

(١٠) الفتيت وزن فعيل من فتّ . والمسك إذا فتّ كان أعبق لرائحته وأبعد نشرا .

(١١) هيت لك (مثلّثة الآخر) ـ وقد يُكسر أوله ـ أي : هَلُمَّ .

١٢ فــاذكُرْ مِهــادِي إلى التَّنَــادي وامهَــدْ لَــهُ قبــلَ أن يَفــوتْ

١٣ فَعَن قَرِيبٍ تَكـــــونُ طُعْمِي سَخِطتَ يــاصــاحِ أم رَضيتْ

---

(١٢) الْمِهَاد والمهْد ـ في الأصل ـ الموضع يُهيَّأ للصبي ويُوطّأ لينام فيه ، ومن معاني الْمِهاد : الأرض أو ماانخفض منها في سهولة واستواء .

(١٣) الطُّعم (بضم الطّاء) الطّعامُ ، وكُلّ ماأُكل ؛ أي يقول له القَبْرُ : ستكون طعاماً للدّود حين تنزل فيّ .

[١٤]

وقال أيضاً ـ رضي الله عنه ـ:

[يذكر الشاعر عزلته عن الناس ويعلل ذلك بأنه يقصد تجنب ما يورد موارد العقاب (١) ويعلن خصام نفسه الأمّارة العاصية (٢) ويعاتبها صراحة ويزجرها وينبهها إلى عوامل تدعو إلى الارتداع (٣ ـ ٤) ويقرر أنه استطاع زجرها وردعها على أنها لم تسلم من الاضطراب (٥) ويذكر تسويفها ومواعيدها (٦ ـ ٧) وخداعها أيضاً (٨) ووقوفه لها بالمرصاد (٩)] .

[من المتقارب]

١ أَلِفْتُ العُقَابَ حِذارَ العِقَابِ   وعِفْتُ الموارِدَ خَوفَ الذِّئَابِ

(١) العُقاب (بضم العَيْن على هيئة اسم الطائر الجارح المعروف) اسم حِصن قريب من مدينة غرْناطة . وسمّاه حصناً الحجاريُّ في (المسهب) كما نقل عنه ابن سعيد في المغرب (١٣٣/٢) ، وقد ذكره ابن سعيد عند حديثه عن كورة إلبيرة وترجم لأبي إسحاق الإلبيري باعتباره منتسباً في الوطن إليه .

وقال لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة في أخبار غرناطة (١٥٥/٢) إنّ رابطة العقاب « متعبد الشيخ وليّ الله أبي إسحاق الإلبيري رحمه الله » فذكره باسم رابطة والرابطة والرّباط : موضع يكون فيه العبّاد والزّهاد وأصله موضع ينقطع فيه المجاهدون ، ثم توسّعوا في دلالته ووظيفته .

والعُقاب غير العِقاب (بكسر العين على هيئة معنى المعاقبة) ، وهو موضع جرت فيه موقعة

٢ وأبغَضْتُ نَفسِي لعِصيـــانِهـــا | وعــاتَبتُهــا بِــأشَـدِّ العِتَــابِ
٣ وقلتُ لهــا بــانَ عَنْــكِ الصِّبــا | وَجَرَّدَكِ الشَّيْبُ ثــوبَ الشَّبــابِ
٤ ومـــا بَعْـــدَ ذلِــكَ إلاَّ البلى | وسُكْنى القُبُـورِ وَهَـوْلُ الْحِسَـابِ
٥ فــأيْقَظَهــا العَتْبُ مِنْ نَــوْمِهَــا | ولَكِنَّهـــا جَمَّـــةُ الإضْطِرابِ
٦ فَكَمْ أَنْشَـــأَتْ مُـــزْنَـــةً للتُّقى | وعـــادَتْ وَشِيكاً كَلَمْـعِ السَّرابِ
٧ وكم وَعَـــــدَتْني بِتَـــوْبٍ وَكَمْ | وَمَـا أنْجَزَتْ وَعْـدَهـا في الْمَتـابِ
٨ وكم خَـــــــــدَعَتْني عَلَى أنَّني | بَصِيرٌ بِطُرْقِ الْخَطَـــا والصَّــوابِ
٩ فَلَسْتُ على الأمْنِ مِنْ غَــدْرِهـــا | ولَــو حَلَفَتْ لي بِـآيِ الكِتَــابِ !

حـاسمة بين جيوش الموحـدين (من الأنـدلسيين والمغـاربـة) وبين تجمع الـدول الإسبـانيـة والمتطوعة الأوربية سنـة ٦٠٩ ، وكانت تمحيصاً للمسلمين آذن بـأفول نجم الـدولـة الإسلاميـة هناك ، في كلام يطول ليس هذا مجاله ـ فالمقصود إذن العُقاب : حصن العُقاب ـ أو رابطـة العُقاب ، وكان حصن العُقاب عـامراً أيـام ابن بطوطـة وقـد ذكره في رحلتـه (ط . صـادر ص : ٦٧٢) ، وقال إن بينه وبين غرناطة ثمانية أميـال ـ يقول الشـاعر إنـه لزم المرابطـة في حصن العقاب لكي يجنِّب نفسه ما يؤدي إلى المخالفة أو ما يوقعها في الإثم الذي نتيجته العقـاب من الله تعالى . وضرب مثلاً : فقد يمتنع مخلوق عن ارتياد مواد المياه ـ على رغم الحاجـة إليهـا أو الرغبة فيها ـ خشية الذئاب المترصِّدة !

(٥) قطع الشاعر همزة « الإضطراب » ضرورة .

[١٥]

وقال أيضاً ـ رضي الله عنه ـ(☆) :

[تختلف هذه القصيدة ـ والقصيدة ذات الرقم ٢٣ ـ عن أصول الشعر العربيّ بتكرار كلمة واحدة لاتتغيّر من أول القصيدة إلى آخرها في قافية البيت . وشفع له أنه وقف هنا ـ وهناك في التالية ـ عند كلمة من مفرداته في غرضه الشعريّ الرئيسي ، أعني : الزّهد بما في الدنيا والعودة إلى الله تعالى ، أعني لفظ الجلالة ، الله ، سبحانه وتعالى .

يبدأ الشاعر بخطابِ مجهولٍ ، وهو نموذج لكثير من الناس ، ممّن اغترّ وفرّط ، ويدعوه إلى العودة إلى الله تعالى ، ويلوذ به ويؤدي حق العبادة ، ويتوب من الذنوب (١ ـ ٨) ويذكر مكانة التقوى والتقيّ (٩ ـ ١١) ومَساءة الشقاء والشقيّ (١٢ ـ ١٣) ويحذّر المتهاون الذي غاب عنه خوف العذاب (١٤ ـ ١٥) ويردّد ماأصاب الْجَبّارين الأشدّاء من سهام الله (١٦ ـ ٢١) ويدعو الإنسان إلى الاعتبار بمن مضى ، والانتباه لصنع الله في الكون من آيات الخلق (٢٢ ـ ٢٦) ويستطرد إلى تسبيح الأفلاك وكل ما في الكون (٢٧ ـ ٣١) وغيرة الله تعالى على حماه (٣٢ ـ ٣٣) وسعادة الموحّد بتوحيده .

وينتقل الشاعر ليضرب مثل العجوز المتصابي (وهو عنده نموذج سيّء) ويذكر جهله وتضييعه (٤٠ ـ ٤٤) ويصل في البيت (٤٥) إلى الحديث عن نفسه ، ويضرب بها المثل ـ على عادته ـ ليقول ما يشاء في العبد إذا ضيّع طاعة الله فأخطأته رحمته وسلك سبيل أهل النار في النار ، وشقي يوم العَرْض العظيم (٤٦ ـ ٥١) ويختم بحديث الفائز ذلك اليوم (٥٢) وبحمد الله تعالى على نعمة الإسلام (٥٣)] .

(☆) في هذا الديوان قصيدة يختم كل بيتٍ فيها بلفظة الجلالة « الله » وقصيدة أُخرى يختم كل بيت

[من السريع]

١	يــــا أَيُّهــــا الْمُغْتَرُّ بـــــالله	فِرَّ مِنَ اللهِ إلى اللهِ
٢	ولُــذْ بــهِ واســأَلــهُ مِن فَضلِــهِ	فَقَــــد نَجـــا مَنْ لاذَ بــــالله
٣	وقُم لَـــهُ واللَّيــلُ في جِنحِـــهِ	فَحَبَّــــــذا مَن قـــــام لله

فيها بلفظة (النار) وقرأت في بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (١٧/٦) أبياتاً تنتهي بكلمة (محمّد) ﷺ ؛ فيها :

مِنَ النَّاسِ بَيْنَ النَّاسِ ماسارَ سائرٌ	أجـلُّ وأعلى قِمَّـــةً مِنْ محمّـــدِ
وما وطِئَتْ رجلانِ هامةَ أرضنا	أجـلُّ وأهْــدى همّــةً مِنْ محمّــدِ
وما حَملت من ناقةٍ فوق كُورها	أعـزَّ وأوفى ذِمّـــةً مِنْ محمّـــدِ
وما مِنْ إمامٍ أمَّهُ النـاسُ بُرْهـةً	أبرَّ وأرْبى أمّـــــة من محمّــــد

ولم يسمّ الفيروزآبادي الشّاعر ؛ وظاهرٌ من أسلوبه أنه لشاعر متأخّر الزّمان .

وفي الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي ، السفر الرابع : ٢١٣ قطعة لأبي الحجاج ابن الشيخ البلوي (صاحب ألف باء) يهزأ فيها بنبوءة هندية شاعت في العالم الإسلامي سنة ٥٨١ أنه في يوم ٢٩ جمادى الآخرة سنة ٥٨٢ سيكون طوفان وريح تأخذ كل شيء . وكان بعض السذّج خافوا من الإشاعة . وتصدى العلماء والشّعراء الصالحون لهذه الشائعة ، ثم أكدوا ماقالوه بعد مرور اليوم المزعوم . قال أبو الحجاج :

يـــا أيهـــا النـــاس اشكروا ربكم	لم يــــك لا خسفٌ ولا ريـــحُ
وكـــذبـــةَ الهنـــدي لم تتفـق	وكان مــاقـد قــالـه: الريـحُ !
تعْســـاً لـــــه من كاذبٍ مفترٍ	لســـانــــه حرّكـــه الريـحُ
وحـــافِرُ القـوبـــة أفّ لـــه	إذ هـــــزّه ذلكُمُ الريـــــحُ
صــدّق كــذابـاً بـلا حجّـــةٍ	أولى بهـــا بـل قـولـــه الريـحُ
الحمــــد لله الـــذي عنـــده الـ	ـخيرُ ومن رحمتــــه الريـــحُ
يرسلهــا بين يـــدي غيثــــه	بشرى لنـــا يـــا حبّــذا الريـحُ !

(١) ضبط (فَرَّ) في الأصل بالفتح .

(٣) الجِنح (بالكسر) الجانب ، ومن الليل : الطائفة منه ، وتُضمُّ الجيم أيضاً .

٤	وأْتــلُ مِنَ الــوَحْيِ ولَــو آيــــةً	تُكْسى بِهـــــا نـــوراً مِنَ اللهِ
٥	وعَفِّرِ الــوَجــهَ لَــهُ ســاجِــداً	فَعــــــزَّ وَجـــــــهٌ ذَلَّ للهِ
٦	فَما نَعيمٌ كَمُنــــاجـــــاتِــــهِ	لقـــــــــــانِتٍ يُخْلِصُ للهِ
٧	وابعُــدْ عَنِ الــذَّنبِ ولا تــاتــهِ	فَبُعـــــــــــدُهُ قُربٌ مِنَ اللهِ
٨	يــا طــالِبــاً جــاهــاً بِغَيرِ التُّقى	جَهِلتَ مـــــا يُــــدني مِنَ اللهِ
٩	لا جــاهَ إلاّ جــاهُ يــومِ القَضــا	إذْ لَيْسَ حُكْمٌ لِسِـــــوى اللهِ
١٠	وصـــارَ مَنْ يُسْعَــدُ في جَنَّــةٍ	عـــالِيَـــةٍ في رَحْمَــــةِ اللهِ
١١	يَسْكُنُ في الفِردَوْسِ في قُبَّـــــةٍ	مِن لُـــؤلُـــؤٍ في جيرَةِ اللهِ
١٢	ومَنْ يَكُن يُقضى عَلَيــهِ الشَّقــا	في جـــاحِمٍ في سَخَــــطِ اللهِ
١٣	يُسحَبُ في النَّـــارِ على وَجْهِـــهِ	بســـــابِـــقِ الْحُكْمِ مِنَ اللهِ
١٤	يــا عَجَبــاً مِنْ مــوقِنٍ بــالجـزا	وهـــوَ قليـــلُ الخـــوفِ للهِ
١٥	كأَنَّـــهُ قَـــد جــــاءَهُ مُخبِرٌ	بـــأَمنِــــهِ مِن قِبَـــلِ اللهِ
١٦	يــا رُبَّ جَبَّــارٍ شَــديــدِ القُــوى	أَصـــــابَــــهُ سَهمٌ مِنَ اللهِ
١٧	فــأَنفــذَ الْمَقتَــلَ منـــهُ وكَمْ	أصمَتْ وتُصْمي أَسهمُ اللهِ
١٨	وغـــالَـــهُ الــدَّهرُ ولَم تُغنِـــهِ	أَنصـــارهُ شَيئــــاً مِن اللهِ

---

(٧) رسمت في الأصل المخطوط (تاته) بلا همز على مذهب الأندلسيين المائل إلى التسهيل .

(١٢) الجاحم : الجمر الشديد الاشتعال ؛ والمكان الشديد الحرّ .

(١٣) في سورة القمر ٥٤/٤٧ ـ ٤٨ : ﴿ إنّ المجرمينَ في ضلالٍ وسُعُر يوم يُسْحَبونَ في النّارِ عَلى وُجوهِهِمْ ذوقوا مَسَّ سَقَر ﴾ .

(١٦) في سورة إبراهيم ١٤/١٥ : ﴿ .. وخابَ كُلُّ جبارٍ عَنيد ﴾ .

(١٧) أصْمى الطريدة : قتلها في مكانها .

١٩ وَاسْتُـلَّ قَسْراً مِنْ قُصُـورٍ إلى الـ...أَجْـــداثِ وَاسْتَسْلَمَ للهِ

٢٠ مُرتَهنـاً فيهـا بمـا قَـدْ جَنى	يُخشَى عَليـهِ غَضَبُ اللهِ
٢١ ليسَ لـهُ حَـولٌ ولا قُـوَّةٌ	الْحَـولُ والقُـوَّةُ للهِ
٢٢ يـا صـاحِ سِر في الأرضِ كيما تَرى	مـا فَـوقَهـا مِن عِبَرِ اللهِ
٢٣ وكَم لنـا مِن عِبرةٍ تَحتَهـا	في أُمَمٍ صـارتْ إلى اللهِ
٢٤ مِنْ مَلِـكٍ مِنْهُمْ ومِن سُـوقَـةٍ	حَشْرهُمْ هَيْنٌ عَلى اللهِ
٢٥ والْحَـظْ بِعَينيـكَ أديمَ السَّما	ومـا بهـا مِن حِكمَـةِ اللهِ
٢٦ تَرى بهـا الأَفـلاكَ دَوَّارةً	شـاهِـدةً بـالْمُلـكِ للهِ
٢٧ مـا وقَفَتْ مُـذ أُجرِيَتْ لَمْحَـةً	ـأو دونَهـا ـ خَـوفـاً مِن اللهِ
٢٨ ومـا عَليهـا مِنْ حِسـابٍ ولا	تَخشى الـذي يُخشَى مِن اللهِ
٢٩ وهيَ ومـا غـابَ ومـا قَـدْ بـدا	مِنْ آيَـةٍ في قَبْضَـةِ اللهِ
٣٠ تُـوحِّـدُ اللهَ على عَرشِـهِ	في غَيْبِـهِ فـالأَمرُ للهِ
٣١ ومـا تَسمَّى أَحَـدٌ في السَّما	والأَرضِ غَيرُ اللهِ بـاللهِ

---

(١٩) الأجداث جمع جَدَث : وهو القبر .

(٢٢) في سورة العنكبوت ٢٠/٢٩ : ﴿ قُلْ سيروا في الأَرضِ فـانظروا كيفَ بَـدأَ الخلق ثم اللهُ يُنْشِئُ النَشأَةَ الآخِرَة إنَ اللهَ عَلى كُلِّ شيءٍ قدير ﴾ .

(٢٤) السُّوقة : الرعيّة .

(٢٩) في سورة الزُّمر ٦٧/٣٩ : ﴿ ومـا قَـدَروا اللهَ حَقَّ قَـدْرِهِ والأَرْضُ جميعـاً قَبْضَتُـه يومَ القِيـامـة والسَّماواتُ مطويّاتٌ بِيَمينِه سُبْحانَهُ وتَعالى عَمّا يُشرِكونَ ﴾ .

(٣٠) في سورة الإسراء ٤٤/١٧ : ﴿ وإن مِن شَيءٍ إلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ .

(٣١) في بصائر ذوي التمييز ، للفيروزآبادي ١٢/٢ : الله ـ جلَّ جلاله ـ اسم مختصٌّ بالبارئ تَعالى .

٣٢	إنَّ حِمى اللهِ مَنيــــــــعٌ فَما	يَقرُبُ شَيءٌ مِن حِمَى اللهِ
٣٣	لا شَيءَ في الأَفــواهِ أحلى من التَّـ	ــوحيــــدِ والتَّمجيـــدِ للهِ
٣٤	ولا اطمَـــــأَنَّ القَلبُ إلاَّ لمن	يَعمُرُه بـــــالـــــذِّكْرِ للهِ
٣٥	وإنْ رَأى في دينــــهِ شُبْهــــةً	أمْسَـــك عَنهـــا خَشيـــةَ اللهِ
٣٦	أو عَرَضَتْــــهُ فـــاقَـــةٌ أو غِنًى	لاقـــاهُما بـــــالشُّكرِ للهِ
٣٧	ومن يكُن في هَــديــهِ هَكــذا	كانَ خَليقــــــاً بِرِضى اللهِ
٣٨	وكانَ في الــــدُّنيـــا وفي قَبْرِهِ	وبَعْــــدَهُ في ذِمَّــــةِ اللهِ
٣٩	وفي غَــــدٍ تُبصِرهُ آمنـــــاً	لِخَــوفِــــهِ اليَـــومَ مِنَ اللهِ
٤٠	مـا أَقْبـحَ الشَّيـخَ إذا مـا صَبـا	وعـــاقَـــهُ الْجَهــلُ عَنِ اللهِ
٤١	وهُـــو مِن العُمْرِ على بــــازلٍ	يَحمِلُـــــهُ حَثّـــاً إلى اللهِ
٤٢	هَـــلاَّ إذا أشْفى رَأى شيبَـــــهُ	ينعـــاهُ فــــاسْتَحْيَى مِنَ اللهِ

(٣٢) روى الإمـام أحمـد من حـديث طـويـل عن النعمان بن بشر أن رسـول الله ﷺ قـال : « ... ولكلّ ملكٍ حِمىً وإن حمى الله مَحـارِمُـه » ٢٦٩/٤ وفي حـديث آخر : « إنَّ الله حَمى حِمىً وإن حمى الله ما حرّم » رواه أبو داوود والنسائي .

(٣٦) في الفصيح يقال : عرض له كذا أي بدا وظهر (بتعدية الفعل إلى حرف اللام لهذا المعنى) .

(٤٠) تكرر ذكر قبح الصبا ممن أدركته السن وتقدم منه العُمر .

(٤١) رسمها في الأصل حثّي . وتختلط المثناة بالمثلثة لضعف ظهور التنقيط . ورسمها في المطبوع حتّى .

ـ يقال : جمل بازل وناقة بازل ، وذلك في تاسع سنيّه وليس بعده سن تُسمّى . والمقصود : جمل قويّ يحث الْخُطا .

(٤٢) أشفى على الشيء : أشرف . وينعاه : يخبر بموته .

٤٣	كأنَّما رِينَ على قَلْبِــــــــــه	فَصــــارَ مَحْجــوبــاً عَنِ اللهِ
٤٤	مــا يُعْــذَرُ الجــاهِــلُ في جَهْلِــهِ	فَضْــلاً عَنِ العـــالِمِ بـــاللهِ
٤٥	دارانِ لا بُـــــدَّ لنــــا مِنهُما	بــالفَضْــلِ والعَــدْلِ مِنَ اللهِ
٤٦	ولَسْتُ أَدْري مَنْـــــزِلي مِنْهُما	لكِنْ تَــــــوكَّلْتُ عَلى اللهِ
٤٧	فــاعجَبْ لِعَبــدٍ هــذهِ حــالُــهُ	كيفَ نَبــا عَنْ طــاعَـــةِ اللهِ
٤٨	واسَــوْأَتــا إنْ خــابَ ظَني غَــداً	ولَمْ تَسَعْني رَحْمَـــــــةُ اللهِ
٤٩	وكُنتُ في النَّــــارِ أخــــا شِقْــوَةٍ	نَعــوذُ مِنْ ذلـــكَ بـــاللهِ
٥٠	كَمْ سَــوْءَةٍ مَستــورَةٍ عِنْــدنــا	يَكشِفُهـــــا العَرْضُ عَلى اللهِ
٥١	في مَشْهَــدٍ فيــه جميــعُ الــوَرَى	قَـــدْ نَكَّســوا الأذْقـــانَ للهِ
٥٢	وكَمْ تَرَى مِنْ فــــائـــزٍ فِيهِمُ	جَلَّلَــــــــهُ سِترٌ مِنَ اللهِ
٥٣	فــالْحَمـــدُ للهِ على نِعمَـــةِ الـ	إسْـــلامِ، ثُمَّ الْحَمْـــــدُ للهِ

(٤٣) في الأساس « الرَّين والرَّان » ماغطّى على القلب وركبه من القسوة للذنب بعد الذنب . وفي التنزيل العزيز : ﴿ كَلاّ بل رانَ على قُلوبهم ماكانوا يَكسِبون ﴾ سورة المطففين [١٤/٨٣] .

(٤٥) الدّاران المذكورتان في البيت هما : الْجَنّة ، والنّار : وسيحلُّ الشاعر ـ وكل واحد من بني آدم ـ في إحداهما ، قال : « ولست أدري منزلي منهما : البيت ٤٦ » .

(٥٠) السّوأة : كل عمل وأمر شائن .

(٥١) في سورة الإسراء [١٠٧/١٧ ـ ١٠٩] : ﴿ قلْ آمِنوا بهِ أو لاتُؤمنوا إنَّ الذين أُوتوا العلمَ من قَبلِه إذا يُتلى عليهم يَخِرونَ للأذقانِ سُجَّدا . ويقولونَ سبحانَ رَبِّنا إنْ كان وعدُ رَبنا لمفعولاً . ويَخِرُّونَ للأذقان يبكون ويَزيدُهم خُشوعاً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ يخرون للأذقان سجداً ﴾ أي يسقطون بسرعة على وجوههم ساجدين تعظيماً لله تعالى وشكراً له .

[١٦]

وقال أيضاً ـ رحمه الله ـ في رجل يجرّ ثيابه خُيَلاء في يومِ عيد ، ويقال إنه ابن أبي رجاء(☆) :

[تتوهَجُ هذه القطعة ـ على قِصَرها ـ في فكرة واحدة : إنَ الْمُهِمَّ في الإنسان هو الْمَخْبَر لا الْمَظْهَر .

فالعيد الحقيقي يوم يُغفر للإنسان ، فيكسب حياته الأُخرى

(١) وما نفعُ ذي الثّوب الجديد إذا كان دينُه مردوداً ؟ وأيّ ضرر على ذي الثّوب البالي وهو مقبولٌ عند الله ؟ (٢ ـ ٤)] .

[من البسيط]

١	ماعيدُكَ الفَخمُ إلاّ يومَ يُغْفَرُ لَكْ	لا أَنْ تَجُرَّ بِهِ مُستكْبِراً حُلَلَكْ
٢	كَمْ مِن جَديدِ ثِيابِ دِينُهُ خَلَقٌ	تَكادُ تَلعنُهُ الأَقْطارُ حَيثُ سَلَكْ
٣	وكَمْ مُرَقَّعِ أَطمارٍ جَديدِ تُقًى	بَكَتْ عليهِ السَّما والأَرْضُ حِينَ هَلَكْ
٤	ما ضَرَّ ذلِكَ طِمْراهُ ولا نَفَعَتْ	هذا حُلاهُ ولا أَنَّ الرِّقابَ مَلَكْ

(☆) هو الوزير أبو خالد هاشم بنُ أبي رَجاء الإلبيري . قال فيه لسان الدّين : « كان من عُظَماء أهل إلبيرة وسادتهم ، وهو الذي عاد الفقيهَ الزاهدَ أبا إسحاق بن مسعود الإلبيري في مرضِهِ ، وعَذله على رَداءة مَسكنه ، وقال له : لو سكنت داراً خيراً مِن هذه لكان أوْلى لك . فأجابَه رحمه الله بقوله : قالوا ألا تستجيدُ بيتاً ... القصيدة » وعَدّه في أعيان غَرناطة وكُبرائها .

(الإحاطة ٣١٧/٤ ، نفح الطيب ٤٩١/٣)

(١) الْحُلل : جمع الْحُلّة : كل ثوب جديد تلبسه (وقيل : لاتكون حلة إلا من ثوبين أو ثوب له بطانة أو ثلاثة أثواب ، إزار ورداء وقميص) .

(٣) الأطْمار : جَمْعُ طِمْرٍ ، وهو الثَّوبُ الْخَلَقُ البالي .

(٤) الحلية : مايُزيّن به من مصنوع المعدنيات والحجارة الكريمة والجمع حِلي وحُليّ .

[١٧]

وقال أيضاً رضي الله عنه :

[هـذه قطعـة في تلـوّم النفس ، واستكثـار الخطيئـات ، وأثر الخطيئـة في الرَّين على الفؤاد ، وأنَّ مِن سَواد الخطيئـة مـا يجعلُ الصبـح مظلماً !!] .

[من السّريع]

١ أَيّ خَطيئَــــاتِيَ أَبْكي دَمـــا وَهْيَ كَثيرٌ كَنُجـــــومِ السَّما

٢ قـــد طَمَستْ عَقْلي فَما أَهْتَـــدي وأَوْرَثتْ عَيْنَ فُـــؤادي العَمى

٣ إِنَّـــا إلى اللهِ ! لَقَـــدْ حَـــلَّ بي خَطْبٌ غَـدا صُبحي بِـــهِ مُظلِما !

[١٨]

وقال رحمه الله ـ :

[أجرى الشّاعر مقارنةً بين التّبريز في ميدانِ البِطالة وبين التبريز في التُّقى والبر ، وقــال : إن الفهم ينبغي أن يــدل على الخير وإلاّ فلا فائدة فيه (١ ـ ٢) وربَط بين صداقةِ الأُصحاب الزّائفة والأعمال غيرِ المقبولة وغير الصّالحة (٣)] .

[من الطويل]

لَبَرَّزْتُ في مَيْدانِ كُلِّ بِطالَةٍ	وَبَرَّزَ غَيْري في التُّقَى أيَّ تَبْريزِ
إذا لَمْ يَكُنْ فَهْمي إلى الْخَيْرِ قائِدي	فَلا كانَ فَهْمي لا ، ولا كانَ تَمْييزي
تَطَلَّبْتُ إخْوانَ الصَّفا فَوَجَدْتُهُمْ	زُيوفاً كَأَعْمالي وَمَنْ لي بِإبْريزِ ؟ !

---

(١) البِطالة (بكسر الباء) هي فعل البَطّال ، والبطّال مبالغة اسم فاعل من بَطَل أي اتبع البِطالة واللهو ولم يشتغل بما ينفعه .واللام في (لبرّزت) للتوكيد وهي لام الابتداء .

(٣) الدراهم الزيوف : المردودة لغشّ ، والذهب الإبريز : الخالص .
ـ والصفا هنا هي الصفاء ، سهّلت الهمزة . وإخوان الصفاء هم أصحاب الرجل الذين يصطفيهم ؛ ويكونون معه في أحوال السُّرور ، والمتوقّع أن يكونوا معه في ساعات العسر .
ـ وأجرى الحديثَ بصيغة المتكلّم ، جَرْياً مع أُسلوبه ، في ضرب المثل عن نفسه ولفت الأنظار إلى الخطأ والصّواب ، والحسن والقبيح من خلال ذلك الحديث .

[١٩]

وقال أيضاً ـ رضي الله عنه ـ :

[في القطعة وصفٌ لنزول الشّاعر رابطةَ العُقاب أو : حصن العُقاب (انظر حواشي القطعة ١٤) وفيها ذكرٌ لأُنسِه بهذا المكان المنقطع ، وإن كان الظن يقع أن يكون موحشاً (١ ـ ٢) ولقد صوّر الشاعر الجانبَ الآخر المتروك من المنازل والدّيار ، فإنّه غادر أناساً : الذئابُ أسلم جواراً منهم ! وكيف يأسى على فقيهٍ تلكَ حالُه : (من الْمُرائين أو النَّمّامين) أو على صديقٍ يكون منه الشرُّ والبَلاء ؟ (٣ ـ ٤) ويكشف عُوار الكُبَراء والوُجَهاء لسوءِ أعمالِهم وسُلوكهم حتّى إنَّه يُزهّد في رؤيتهم (٥) ويَخْلُص إلى نتيجة بعد ذلك العرض : إن البُعد غنيمة والوحدة خلاصٌ حين يكون الناسُ حولك على تلك الشّاكلة (البيت ٦)] .

[من الوافر]

١ أَلا حَيِّ العُقابَ وقاطِنيهِ وقُلْ أَهلاً بِهِ وبِزائريهِ

٢ حَلَلْتُ بِهِ فَنَفَّسَ ما بِنفسي وأَنَّسَني فَما اسْتَوحَشْتُ فيهِ

٣ وكَمْ ذِيبٍ نُجاوِرَهُ ولكِنْ رأيتُ الذّئبَ أَسْلَمَ من فقيهِ

(٣) أي : أسلم من فقيهٍ من طُلّاب الدُّنيا ، المتاجرين بعلمهم . وقد كانت الأندلس ـ آنذاك ـ مَوْوفة بنفرٍ من الفقهاء والأُدباء ومُشْتَهي السُّلْطة الساكتين عن هَفَواتِ الحكّام وأخطائهم المنجرفين مع محبّة الدنيا المستغرقين في ملذّاتها .

ولم أجــزعْ لفقـــــدِ أخٍ لأنّي رأيتُ الْمَرءَ يُــؤتى مِن أَخِيــــهِ
وأيـــــأَسَني من الأَيَّـــــامِ أنّي رأيتُ الـوَجْـهَ يَـزهَـدُ في الـوَجيـهِ
فـــآثَرتُ البِعـــادَ على التّـــداني لأَنّي لَمْ أَجِــــد مَن أَصطَفيــــهِ!

(٤) أُتِيَ الرجل : دنا منه العدو وأشرف عليه واستعملها الشاعر بتوسع لمعنى : يصابُ ، أو يؤخذ على غِرّة . والمقصود بالأخ هنا الصَّديق .

(٥) الوجيه : ذو الجاه والقَدْر .

[٢٠]

وقال رحمه الله في خراب إلبيرة ـ :

[هذه القصيدة في رثاء مدينة إلبيرة وندب زمانها المنقضي والبكاء على ماتناثر من فضلها وضاع من مجدها .

بدأ الشاعر فعاتب أهل زمانه ـ وعادتُهم رثاءُ الدّيار وندبُ الأطلال ـ لإهمالهم رثاءَ إلبيرة (١ ـ ٢) ويذكر بعض مآثر هذه المدينة وفضلها على غيرها من الْمُدن (٣) وفضل أهلها وعلمائها . ويذكر كم تحقّق فيها من المآرب (٤ ـ ٦) ويذكر حُسن نسائها (٧ ـ ٨) ويُصَوّر تحوّلها من الحياة والحركة إلى الضياع والْخَراب (٩ ـ ١١) ويرثي لها بحرقة (١٢) ويسترجع صوراً ماضيةً منها (١٣ ـ ١٥) ويسجّل أساه وأسفه (١٦) ويُثني على أهل إلبيرة وعلمائها من الأحياء والأموات (١٧ ـ ١٩) .

ويخرج الشّاعر إلى الاعتبار بما جرى ـ من خَراب المدينة ـ (٢٠ ـ ٢١) ويُعلّل ماجرى على إلبيرة تعليلاً يرتبط بفلسفة الشاعر (٢٢ ـ ٢٣)] .

[من الطويل]

١ يُضَيَّعُ مَفْروضٌ ويُغفَلُ واجِبُ وإنِّي على أهْلِ الزَّمانِ لَعاتبُ

٢ أَتُنْدبُ أَطْلالُ البِلادِ ولا يُرى لإلْبيرَةٍ مِنهُمْ على الأَرضِ نادِبُ

---

(٢) إلبيرة : كانت إلبيرة مركز كورة إلبيرة ثم خربت في الفتنة البربرية سنة ٤٠٠ هـ (فعمرت غرناطة التي كانت صغيرة مغمورة) ونهضت في مقام إلبيرة . =

٣ عَلى أَنَّهــا شَمسُ البِــلادِ وأُنسُهــا   وكلُّ سِــواهــا وَحشَــةٌ وَغَيــاهِبُ
٤ وكم مِنْ مُجيبٍ كانَ فيهـا لِصــارخٍ   تُجابُ إلى جَدْوى يَدَيهِ السَّبـاسِبُ
٥ وكَمْ مِن نَجيبٍ أَنْجَبَتــهُ وعــالِمٍ   بــأَبــوابِهِمْ كانَتْ تُنــاخُ الرَّكائبُ

= قال ياقوت : « وربما قالوا لِبيرة ويلبيرة ؛ مـدينـة في جنوب الأنـدلس . كانت مركز كورة كبيرة ، من مدنها التابعة لها غرناطة وقسطيلية وشلوبينية » . وظلت عامرة إلى نهايـة القرن الرابع الهجري . فلما اضطرب أمر الأندلس أيام الفتنة استقدم أهلُها قبيلـة صنهـاجَـة فقـادوا المدينة وحكموها . فلما أنسوا من أنفسهم ضعفاً عن الدفاع عن إلبيرة ـ لأسباب عسكرية وغير ذلك ـ خرجوا إلى سهل غرناطة واستوطنوا المنطقة ، وخرج الناس عن إلبيرة شيئـاً فشيئـاً ، « وخربت عند ذلك إلبيرة » كما قال الأمير عبد الله في مذكراته .

وكانت إلبيرة ـ قبـل خرابهـا ـ من أعظم كُـور الأنــدلس ، وكانت تسمى في عهود مــاقبـل الإسـلام : سَنـام الأنـدلس ، وكانت في عهـد الـدولـة المروانيــة عــامرة مشهـورة . وقــال ابن حيان : إنه كان يجتمع بباب المسجـد الجامع من إلبيرة خمسون حَكَمـة كُلّهـا من فضـة ، لكثرة الأشراف بها (والْحَكَمة لجامُ الفَرس ونحوه من الدوابّ) .

وخلفت غرناطة مدينـة إلبيرة فـازدهرت وظهرت ، وصـارت عـاصمـة الأنـدلس الأولى منـذ دخول ابن الأحمر إليها ، وانحسـار ظل الإسلام عن أمصـارهـا الأخرى . وكورة إلبيرة كانت المحلة التي اختارها أمير الأندلس أبو الخطار الكلبي فأنزل فيها جند دمشق من طالعـة بلج بن بشر ـ وكانوا جميعاً في قرطبة ففرّقهم في بلاد الأندلس حسماً للنزاع ، وجعل جند كل منطقـة فيما يشبهها من بلاد الأندلس ، ولهذا قيل لإشبيلية (حمص) ـ وغرناطة من بعد ـ دمشق .

راجع معجم البلـدان ليـاقوت « إلبيرة » و« غرنـاطـة » والتبيـان للأمير عبـد الله « مواضـع متفرقـة » . والإحـاطـة في أخبـار غرنـاطـة للسـان الـدين بن الخطيب ـ المقـدمـة . وفجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس والرّوض المِعطار للحميري في مادة إلبيرة وغرناطة .

(٣) غياهب : جمع غَيْهَب وهو الظُلمة أو شدة سواد الليل ، يقال : ليل غيهب .

(٤) السبسب : المفازة ، أو الأرض المستوية البعيدة . والجوب : القطع . والصارخ : المستغيث .

(٥) الركائب : جمع الركاب : الإبل ؛ يُسار عليها ، واحدتها راحلة .

٦	وكَمْ بَلَغتْ فِيها الأَماني وقُضِّيَتْ	لِصَبٍّ لُبانـاتٌ بِها ومآربُ
٧	وكَمْ طَلَعتْ مِنْها الشُّموسُ وكم مَشتْ	على الأرضِ أقمارٌ بِها وكواكِبُ
٨	وكَمْ فَرَستْ فيها الظِّباءُ ضَراغماً	وكم صَرعَتْ فيها الكُماةَ كواعِبُ
٩	لَعَهدي بِها مُبيَضَّةَ اللّيلِ فاغتَدتْ	وأيّامُها قد سَوَّدَتْها النَّوائبُ
١٠	وما كانَ فيها غيرُ بُشْرى وأَنعُمٍ	فَلَمْ يَبْقَ فيها الآنَ إلاّ الْمَصائِبُ
١١	غَدَت بَعدَ رَبّاتِ الحِجالِ قُصورُها	يَباباً تُغاديها الصَّبا والْجَنائِبُ
١٢	فَآهٍ أُلوفاً تَقْتَضي عَددَ الْحَصا	على عَهْدِها ماعاهَدتْها السَّحائِبُ
١٣	عَجِبْتُ لِما أدري بِها مِن عَجيبةٍ	فيالَيتَ شِعري أينَ تِلْكَ العَجائِبُ ؟
١٤	وما فَعلَتْ أعلامُها وفئامُها	وأرْآمُها أم أينَ تِلْكَ المراتِبُ

---

(٦) اللُّبانة : الحاجة . وفي الأساس « وما قضيت منه لُبانتي : نهمتي » .

ـ والصَّبُّ : العاشق المشتاق .

(٨) جعل النسوة من الْحُسْنِ والجمال شموساً وأقماراً وكواكبَ وظباءً وجعل الرجال ضراغم (وهي الأسود) وكل ذلك على المجاز والاستعارة .

ـ والكماة : جمع الكمي : الجريء ؛ وفي اللغة : الشجاع كان عليه سلاح أو لم يكن .

ـ الكواعب : جمع كاعب وهي الفتاة أوان نهد ثدياها .

(٩) هذا البيت يذكِّر بقول أبي تمام :

ضوء من النار والظلماء عاكفةٌ ... وظلمةٌ من دخانٍ في ضُحًى شحِبِ

(١٠) أنْعُم : جمع نِعمة : المسرّة ، والخفض والدَّعة .

(١١) ربّات الحجال : النساء ، والحِجال جمع الحجلة : موضع مثل القبة يُتَّخذ للعروس يُزيّنَ بالثياب والستور والأَسِرّة ولها أزرار كبار .

(١٢) ضبطها في الأصل المخطوط : فآهَ .

(١٤) أعلام جمع علم : سيد القوم .

ـ والفئام : الجماعة من الناس .

ـ والمرتبة : المنزلة الرفيعة .

١٥	وأَينَ بِحــارُ العلْمِ والحِلْمِ والنَّــدى	وأَيْنَ الأَكُفُّ الهـامِيـاتُ السَّواكِبُ
١٦	شقَقْنا على مَنْ ماتَ مِنهُمْ جُيوبَنـا	وكانَ قَليــلاً أَنْ تُشَـــقَّ التَّرائِبُ
١٧	وإنْ فُقِـدَتْ أعْيـانُهمْ فَلَتـوجَـدنْ	مَـدى الـدَّهْرِ أفعـالٌ لَهُمْ ومَنـاقِبُ
١٨	وَقَـد بَقِيَتْ في الأَرضِ منهُمْ بَقِيَّـةٌ	كأَنَّهُم فيهــــا نجُــومٌ ثَـــواقبُ
١٩	فَلِلّـــــهِ ثــــاويهِمْ ولله حَيُّهم	فكلٌّ جَـوادٌ بـاهِرُ الفَضْـلِ واهِبُ
٢٠	لَسـاءَلْتُ عنهم رَسمَهـا فـأجـابني	«ألا كُلُّ شَيءٍ مـا خَـلا اللهَ ذاهبُ»
٢١	يُخاطِبُنا: أَنْ قَد أُخِـذتُ بـذنبكُمْ	وما أَحَدٌ منكُم عنِ الذَّنب تـائِبُ!
٢٢	وأَنْ قَـد قَسَتْ أكبـادُكُم وَقُلـوبُكم	ومــــا مِنْكُمُ داعٍ إلى اللهِ راغِبُ
٢٣	لَشَكْلُكُمُ أولى وأَجْـــدَرُ بـــالبُكا	عَلى مِثلِـهِ حَقّـاً تَقومُ النَّـوادِبُ!

---

(١٥) الهاميات جمع الهامية، من همى الدمع: سال، وهمى السحاب: صَبَّ مـاءه، وهمى المطر: انصَبَّ. وتوصف أكف الكرام بأنها تهمي وتسكب على التشبيه بالسحاب والمطر.

(١٦) جيب القميص: طوقه. والترائب: عظام الصدر، أو مـاوَلِيَ الترقوتين منه؛ أو مـا بين الثديين.

(١٨) ثقب الكوكب: أضاء. والكواكب: ثاقبة.

(١٩) من معاني ثوى: مات.

(٢٠) عجز البيت يذكر بقول لبيد (ديوانه: ٢٥٦):

ألا كل شيءٍ مـا خـلا الله بـاطـلُ   وكل نعيمٍ لا محـــالـــة زائِـــلُ

(٢١) أخذه بكذا: أي عاقبه به (بسببه).

(٢٢) في سورة الحديد [١٦/٥٧]: ﴿ ألَمْ يأنِ للذينَ آمنوا أنْ تَخشعَ قُلوبُهم لذكرِ اللهِ وما نزل من الحقِّ ولا يكونوا كالذين أُوتوا الكتابَ من قبل فطالَ عليهم الأمدُ فقسَت قُلوبهم وكثيرٌ منهم فاسِقون ﴾.

(٢٣) الشَكل: الشبه والمثلُ: ويكسر.

[٢١]

وقال أيضاً - رضي الله عنه - يرثي امرأته ؛ وأَحْسَن في هذه القصيدة كلَّ الإحسان :

[ورد في تقديم القصيدة أنها في رثاء زوج الشاعر . والحق أنّه جعل رثاءها أساساً للقصيدة غير أنها مضت في ثلاث حلقات :

الحلقة الأولى : في رثاء الزوجة (١ - ١٩) .

والحلقة الثانية : في زهده وزجر الستين له (٢٠ - ٣٩) .

والحلقة الثالثة : في مواقف أخلاقية ودينية مما يُنكره على غيره ويرضاه من نفسه .

- بدأ الشاعر فوقف عند الجدث (١) العاطر بتقوى الزوجة وورعها (٢ - ٣) مسلِّماً محيِّياً (٤) ورجا زيارة الطيف (٥) فيواسي ذلك قلبه ويعلِّله (٦) وذكر من مشاعره نحو زوجته (٧ - ٩) ومآثرها الطيبة (١٠) التي استدعت بكاءه ورثاءه (١١) والتي تستحق أن يقضي أسفاً (١٢) ويجعل ضريحها في قلبه (١٣ - ١٤) ودعا لها بالمغفرة (١٥) وذكر ما يستحق جزاء الصبر على فقدانها (١٦ - ١٩) .

- وخرج إلى ما يَجْمُلُ بمن جاوز الستين (٢٠ - ٢٢) وأن مآرب الحسان فيه انقضت (٢٣ - ٢٦) وبيَّن لزومه كتاب الله ، وتنعُّمه به وبالعلم متابعةً وتعليماً (٢٧ - ٣٠) ووعظ نفسه (٣١ - ٣٤) وذكر تجاربه من السنين مع الناس (٣٥ - ٣٧) وإباءه وارتحاله عن مواطن الذلّ (٣٨ - ٣٩) .

- والتفت إلى جانب آخر فَذَمَّ الثرثارين (٤٠ - ٤٣) وذكر فضل

الصمت والقصد في الكلام (٤٤ ـ ٤٧) وزهده (٤٨ ـ ٥١) وقناعته (٥٢ ـ ٥٤) ومكانته في الناس (٥٥) وأن العاقبة لمن ثقلت موازينه (٥٦ ـ ٥٨) وختم بشكر الله تعالى والضراعة له (٥٩ ـ ٦٠)] .

[من الكامل]

١	عُج بِالْمَطِيِّ عَلى اليَبابِ الغَامِرِ	وارْبَعْ عَلى قَبْرٍ تَضَمَّنَ نَاظري
٢	فَستَسْتَبِيْنَ مكانَهُ بِضَجِيْعِهِ	ويَنِمُّ منهُ إليكَ عَرْفُ العاطِرِ
٣	فلكَم تضمَّنَ مِن تُقىً وتعفُّفٍ	وكريمِ أعراقٍ وعِرْضٍ طَاهِرِ
٤	واقْرَ السَّلامَ عليهِ مِن ذي لَوعَةٍ	صَدعَتْهُ صدعاً مَالَهُ من جابِرِ
٥	فَعَساهُ يسمحُ لي بِوَصلٍ في الكَرى	مُتَعاهداً لي بالخيالِ الزَّائِرِ
٦	فَأُعَلِّلَ القلْبَ العليلَ بِطيفِهِ	عَلِّي أوافيهِ ولَسْتُ بغادرِ
٧	إنِّي لأسْتَحييهِ وهو مُغَيَّبٌ	في لَحْدِهِ فكأنَّهُ كالحاضرِ
٨	أرعى أذِمَّتَهُ وأحفظُ عهدَهُ	عندي فَمَا يَجري سواه بخاطري
٩	إنْ كان يَدثُر جسمُه في رَمْسِهِ	فَهَواي فيهِ الدَّهرَ لَيسَ بداثِرِ
١٠	قَطَعَ الزَّمانَ معي بأكرمِ عِشْرَةٍ	لَهْفي عليهِ مِنْ أبَرِّ مُعاشِرِ
١١	ما كانَ إلاَّ نَدْرةً لاأرتجي	عِوَضاً بِهَا فَرَثيتهُ بِنوادرِ

---

(١) عُجْ : من فعل عاج بالمكان : أقام به .
واليباب والغامر : الخراب وفي الأساس : ارْبَعْ على نفسك : تمكّث وانتظر .

(٢) في الصحاح : نَمَّ الحديث بابه ردَّ (يَرُدُّ) ـ وَيَنِمُّ بالكسر لغة فيه ، الضجيع هنا المتوفى (المقصود زوجة الشاعر) .

(٤) صرعه : شقّه (وهو هنا صدع مجازيّ) .

(٩) الرّمس : القبر .

١٢ ولـــوَانَّني أنصَفتُـــــهُ في وُدِّهِ	لَقَضيتَ يَـومَ قضى ولم أستـاخِرِ!
١٣ وشقَقتُ في خِلْبِ الفـؤادِ ضَريحَـهُ	وَسَقَيتُـهُ أبـداً بِمَـاء مَحَـاجري
١٤ أجِـدُ الحلاوَةَ في الفؤادِ بكَـونـه	فيــه، وأرعَــاهُ بِعَينِ ضمَـائِري
١٥ لَسَـألتُ مَغفرةً لَـهُ وَتَجـاوُزاً	عَنـهُ من الرَّبِّ الْجَـوَادِ الغَـافرِ
١٦ أخْلِـقْ بِمثلِي أن يُرى مُتَطلِّبـاً	حَـوراءَ ذاتَ غَـدائرٍ وأسـاورِ
١٧ مَقْصُـورةً في قُبَّــةٍ مِنْ لُـؤلُـؤٍ	ذُخِرتْ ثَـواباً لِلْمُصـابِ الصَّابرِ
١٨ لَخلَتْ ذراعِي وانفردتُ فـإن أكُن	تـاجرتُ فِيها كنتُ أربحَ تـاجرِ
١٩ ولَئن حُرِمتُ ولم يَفُزْ قِدْحي بها	فــأنـا لَعَمرُ اللهِ أخسرُ خــاسرِ
٢٠ مَنْ جـاوزَ السِّتِّينَ لم يَجْمُـلْ بِـهِ	شُغْـلٌ بِجُمْـلٍ والربـابِ وغـادرِ
٢١ بَـلْ شُغلـــهُ في زادِه لِمَعـــادِه	فـالـزَّادُ آكَـدُ شُغـلِ كُـلِّ مُسـافرِ
٢٢ والشَّيـخُ ليس قُصَـارُه إلا التُّقى	لاأنْ يَهيمَ صَبـابَــةً بِجَـآذرِ
٢٣ نَفَرتْ طِبـاعُ الغِيدِ عَنْهُ كراهـةً	ومِنَ العَنَـاءِ عـلاقَـةٌ بِمُنَـافرِ
٢٤ هَـل يَلْتَقي قِرنٌ بِقرْنٍ في الـوَغى	إلا بِــأزْرَقَ أو بِعَضبٍ بــاترِ
٢٥ وإذا تَقَحَّمَ أعــزلٌ في مَــأزقٍ	كان الأسيرَ ولم يَكُنْ بـــالآسرِ

---

(١٢) قضى : مات .

(١٣) في اللسان : الخلب حجاب القلب .

(١٦) غدائر : جمع غديرة وهي الذُّؤابة .

(١٧) في القاموس : امرأة مقصورة : محبوسة في البيت لاتُتْرك أن تخرج .

(٢٠) جُمل والرّباب وغادر من أسماء النساء .

(٢٢) قُصَاراك (بالضم) أي جهدك وغايتك ، وأيضاً قَصيراك ، وقَصارك ـ بالفتح ـ .

(٢٤) الأزرق : الرمح ، والعَضب : السيف ، والقِرن : المكافئ .

٢٦ مـا يَشتهي نهـداً ولَحظـاً فـاتراً ... إلاّ خَلِيٌّ في زَمـانٍ فـاترِ

٢٧ حَسبِي كتـابُ اللهِ فهـوَ تَنَعُّمِي ... وتَـأنُّسي في وحشتي بـدفـاتِري

٢٨ أفتضُّ أبكَـاراً بِهـا يَغسِلْنَ مَنْ ... يَفْتَضُّهُنَّ بكُـلِّ مَعنى طَـاهِرِ

٢٩ وإذا أردتُ نَـزاهَـةً طَـالَعتُهـا ... فـأجُـولُ منهـا في أنيـقٍ زاهرِ

٣٠ وأرى بِها نَهْجَ الهِدايَـةِ واضحـاً ... يَنجُـو بـهِ مَنْ لَيسَ عنـهُ بجائرِ

٣١ قَـدْ آنَ لي أن أستَفيـقَ وأرعَـوي ... لـوأنّني مِمَّن تَصِـحُّ بصـائري

٣٢ فَلَكَمْ أروحُ وأغتـدي في غَمْرَةٍ ... مُتردِّداً فيهـا كَمِثْـلِ الحـائرِ

٣٣ وأرى شَبـابي ظـاعِنـاً في عَسكرٍ ... عنّي وشَيْبي وافـداً بِعَسـاكرِ

٣٤ فَغَـدَتْ مُظَفَّرةً عَليَّ ولَم تـزلْ ... قِـدْماً مُعَـلاَّةً قِـداحُ الظّـافرِ

٣٥ ولقـد رأيتُ منَ الـزَّمـانِ عَجائباً ... جرَّبتُهـا بمـواردي ومصـادري

٣٦ فـوجـدتُ إخـوان الصَّفـاء بـزعمهمْ ... يلقـاكَ أمْحضُهم بعَرْضٍ سـابِري

٣٧ ولربّما قـد شـذَّ منهُم نـادِرٌ ... وأصُـولُنـا : أنْ لاقيـاسَ بِنـادِرِ

٣٨ وإذا نَبـا بي منزلٌ أو رابَني ... صَفَّقْتُ عنـه كالعُقـابِ الكاسرِ

---

(٢٦) وصف اللحظ بالفاتر ، ويقال : فتر الطَرف أي انكسر وسجا أو ضعف ضعفاً مستحسناً ، ووصف الزمان بالفاتر : انتقاصاً من الأحوال على زمانه .

(٢٩) النَزاهة : مصدر نَزه . والمقصود تنزّه : أي خرج إلى الأرض النَزِهة .

(٣١) ارْعَوى عن كذا : كفَّ وحَسُن رجوعه عنه .

(٣٢) الغمرة من الشيء ، شدّته ، كغمرة الهم والموت .

(٣٤) المُعلّى : سابع قِداح الميسر : له غنم سبعة أنصبة إن فاز ، وعليه غرم سبعة إن لم يفز . والمقصود هنا : القدح الفائز .

(٣٦) السَّابري : ثوب رقيق جيد . ومنه (قيل) : عَرْض سابري لأنه يرغب فيه بأدنى عرض .

(٣٨) صفق الطائر بجناحيه : ضربها (ليطير) .

٣٩ فأَجُوبُ أَرضاً سَهلُها كَحُزونِها ... عنـدي وأَوّل قُطْرِها كالآخِرِ

٤٠ ولقد عجبتُ لِمُؤمنٍ في شِدقِهِ ... جَرَسٌ كناقوسٍ ببيعةِ كافرِ!

٤١ لَسِنٍ يُهَيْنِم دائباً ولِما يَرَى ... أنَّ اللِّسانَ كمثلِ ليثٍ هاصرِ

٤٢ ولوَانَّني أدعو الكلام أَجابني ... كإجابَةِ الْمَأْسُورِ دعوةَ آسرِ

٤٣ لكنْ رأيتُ نبيَّنا قد عابَهُ ... من كُلِّ ثَرثارٍ وأشدقَ شاعرِ

٤٤ فَصَمَتُّ إلاَّ عَن تُقًى ولَرُبَّما ... قَذفتْ بحارُ قَرِيحتي بجواهرِ

٤٥ مَااسْتَحْسَنُوا طولَ الخطابة بل رأوا ... تَقصِيرَها مَهمَا ارتَقَوا بمنابرِ

٤٦ ولَما رأوا سَرْدَ الكلامِ بسائغٍ ... إلاَّ لعبدٍ قارئٍ أو ذاكرِ

٤٧ فالعِيُّ في الإكثار لا في منطِقٍ ... يُهدي إلى الألبابِ نَفثَةَ ساحرِ

٤٨ ولقَد أقولُ لبعضِ مَنْ هو عاذِلي ... في القصدِ في شأني وليس بعاذِري

---

(٣٩) في الأصل : قَطرها (بفتح القاف) ، والقُطْر بضمّ القاف : النّاحية .

(٤٠) البِيعة : كنيسة النصارى (وترد أيضاً لكنيس اليهود) : محلّ عبادتهم .

(٤١) الهينمة : الصوت الخفي .

(٤٣) عن جابر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « إنّ من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، وإنّ مِنْ أبغضكم إليّ وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون » . قالوا يارسول الله قد علمنا « الثرثارون » و « المتشدّقون » فما المتفيهقون ؟ قال : « المتكبرون » . ـ رواه الترمذي وقال : حديث حسن .
والأحاديث المروية في الشعراء ، وفي الشعر ، مشهورة في كتب الأدب .

(٤٥) في زاد المعاد : ١١٧/١ « وكان ﷺ يقصر الخطبة ويطيل الصّلاة ويكثر الذكر ويقصد الكلمات الجوامع ، وكان يقول : إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنّة من فقهه » والمئنّة : العلامة ، وسبق الكلام على (مهما) في القصيدة [١٠] عند البيت [٣٠] .

(٤٨) العاذل : اللائم ، والعاذر : الذي يجعل لصاحبه (الآخر) عُذراً أو يقبل منه العذر .

٤٩ لَمَّا رأيتُ الأرض أصبحَ ماؤها رَنْقاً كَفَتْني منهُ حَسْوَةُ طائرِ
٥٠ وَلَوانَّني أرْضى القَذا في مَشْرَبي لَكَرعْتُ كرعةَ ظامئٍ بِهَواجرِ
٥١ وعَبرْتُ بَحرَ الرِّزقِ ألتَمِسُ الغِنى حِرْصاً عَلَيْهِ وكنتُ أمهرَ ماهرِ
٥٢ لكنَّني عُوِّضْتُ منهُ عِنايةً بِقناعَةٍ وَتَجَمُّلٍ في الظَّاهرِ
٥٣ فَمِنَ الغِنى ماقَد يَضُرُّ بأَهلهِ والفَقرُ عِندَ اللهِ لَيسَ بضائرِ
٥٤ وَلَقَد أصَبْتُ مِنَ الْمَطَاعِمِ حاجَتِي ومِنَ الملابسِ فوقَ ماهو ساتِري
٥٥ وأنا لَعَمرُكَ مُكرَمٌ في جيرتي ومُعَظَّمٌ ومُبَجَّلٌ بعَشائري
٥٦ وغَداً بِمَيدانِ السِّباقِ سَنلتقي فَيُرى الثَّقيلُ مِنَ الْخَفيفِ الضَّامرِ
٥٧ واسَوأتا إن كُنتُ سُكَّيْتاً بهِ أرجو اللَّحاقَ على هجينٍ عاثرٍ!
٥٨ والويلُ كلُّ الويلِ لي إن لَمْ يَكنْ مولايَ في تلكَ الشَّدائدِ ناصِري
٥٩ إنّي لأشكُرُه على آلائِه فهو الوَفيُّ بِعَهده للشَّاكرِ
٦٠ وإليهِ أضْرَعُ في إنابَةِ مُخلصٍ فهو الَّذي أرجو لِسَدِّ مَفاقِري

---

(٤٩) رنق الماء رنقا : كدر فهو رنق .
ـ حسا الطائر الماء حسواً ، ولا تقل شرب ، والْحُسْوَة (بالضم) الشيء القليل منه .
والْحَسْوة (بالفتح) : المرة من الحسو .
« ويوم كحسو الطير : قصير » .
(٥٠) كرع في الإناء وفي الماء : تناوله بفيه من موضعه .
(٥٦) من اكتنز وتنعّم في الدنيا جاء يوم القيامة في حلبة السِّباق (الحساب ودخول الجنة) ثقيل الحركة . ضرب (السّباق) مثلاً للمكثر والمقلّ والمسيء والُمحسن .
(٥٧) السُّكَّيْتُ (وتُخَفَّف الكاف) آخر خيل الحلبة .
والهجين من الخيل : الذي ولدته برذونة من حصان عربي .
(٥٩) إشارة إلى قوله تعالى ﴿ سَيَجزي اللهُ الشَّاكرينَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَسَنَجْزي الشَّاكرينَ ﴾ من الآيتين [١٤٤ ـ ١٤٥] من سورة آل عمران .
(٦٠) مفاقر : جمع على غير قياس لكلمة الفقر .

[٢٢]

وقال ـ رحمه الله ـ يمدح القاضي ابن توبة(☆) :

[القصيدة في مدح القاضي ابن توبة ؛ وهي في قسمين متتابعين أحدهما : مدخل مطوّل للشاعر فيه نصيب كبير ؛ والثاني : في مدح ابن توبة .

ـ بدأ الشاعر بتفنيد ميل من أدرك الشيخوخة إلى الْحِسان (١ ـ ٣) وذكر حب الحسناء للفتى (٤ ـ ٩) ودعا للبعد عن النساء (١٠ ـ ١٣) وقدم ـ لأولئك الْمُسِنّين ـ براهين لاتَسْلَمُ (١٤ ـ ١٨) وقارن بين داعي الدنيا من محبة الْحِسان وبين داعي الآخرة (١٩ ـ ٢٠) وبيَّن أنه يقول هذا عن رأيٍ في الإعراض عن النساء وأنّ الزُّهد فيهن ليس عن ضعف أو عجز : واستطرد إلى مزايا فيه كثيرة (٢٤ ـ ٢٦) .

ـ وانتقل إلى مدح علي بن توبة بوجوه من معاني المديح الدينيّة والدّنيوية (٢٧ ـ ٣٧) وقال كلاماً في شعره المدحي هذا ووقّر الممدوح توقيراً شديداً (٣٨ ـ ٤٣)] .

(☆) عليّ بنُ توبة : القاضي أبو الحسن علي بن محمد بن توبة ، من أهل غرناطة . وقال أبو جعفر ابن الزُّبير في ترجمته في كتابه صلة الصلة : كان من العلماء الْجلّة الفقهاء . ولي قضاء غرناطة لباديس بن حبوس وكان من قضاة العدل ، وإليه تُنسب قنطرة القاضي . وكان كاتِبَهُ الفقيهُ الزّاهد أبو إسحاق الإلبيري ، وفيه يقول :

بعليّ بن توبةٍ فاز قِدحي ... وسمت همّتي على الْجَوزاء

وتوفّي بعد سنة ٤٥٠ أو نحوَها .

(ترجمته في صلة الصلة لابن الزبير : ٧٨ ، وفي الإحاطة : ٨٢/٤) .

ـ وتنظر مقدّمتنا لهذا الديوان (الصفحة : ٩) .

[من الخفيف]

١	مــا عَنــاءُ الكَبيرِ بــالْحَسنــاء	وَهْو مِثلُ الْحَبـاب فـوقَ المـاء
٢	يَتَصــابى ولاَتَ حينَ تَصــاب	بعُيـونِ الْمَهــا وسِرْبِ الظِّبــاء
٣	ولَعَمْري لَما تُحِبُّ فَتــــاةٌ	يَفَنــاً لـوغَــدا مِنَ الْخُلَفــاء
٤	وتُحِبُّ الفَتى الرَّقيــقَ الْحَــواشِي	حُبَّ ذي الْجَـدْبِ صـادِقَ الأَنْـواء
٥	كَيفَ لا وَهْـوَ يَهْنَــأُ النَّقْبَ مِنْهــا	بهنــاءٍ يَـزيــدُ في البُرَحَــاء
٦	لَحَكاهــا لَطــافَــةً وحَكَتْــهُ	فَهُمَـا في الهَـوى كَمَـزْجِ الهَـواء !
٧	لاكَصَــادٍ أنــاخَ عِنــدَ قَليْب	دُونَ دَلْـوٍ يُـدلي بِـهِ ورِشَــاء !
٨	يَلْحَـظُ الْمَــاءَ حَسرَةً وهـوَ مِنْـهُ	مُتَــدانٍ في حــالَــةِ الْمُتَنــائِي
٩	كُـلُّ قِرْنٍ يُعِـدُّ سَيْفــاً كَليـلاً	لِلقــاءٍ يَخُـونُــهُ في اللِّقــاء

---

(١) يذكّر وزن القصيدة ، ولهجة مطلعها ، بقصيدة الأعشى (الديوان/٣) .

مــا بُكاءُ الكبير في الأطــلال   وســؤالي ومــا تَرُدُّ ســؤالي

والكبير في القصيدتين : الشيخ ، المتقدم في السن .

(٢) من قولهم : تصابى الشيخ . وفي القاموس : صبا إلى المرأة : حَنَّ ؛ وتَصَبَّتهُ : شاقته ودعته إلى الصبا فحنَّ إليها . وتصاباها : خدعها وفتنها .

(٣) اليَفَن : الشيخ الكبير .

(٤) الرقيق الحواشي من الناس : اللطيف الصُّحبة .

(٥) الأصل في معنى هَنأ : طلا ، وهنأ الإبل بالقطران : طلاها .

وبرحاء الحمى : شدتها . ومعنى البيت بعدُ واضح .

(٧) الصادي : العطشان . والقليب : البئر .

١٠ فَمِنَ الرَّأْيِ أنْ تَكُـونَ جَبـانـاً سـامِرِيّـاً يَـدِيْنُ بـالإنْـزِواءِ

١١ عَجبـاً كَمْ رأيتُ مـالاً مَصُـونـاً وفُـؤاداً نَهْبـاً بـأيـدي النِّسـاءِ

١٢ وإذا حـازِمٌ عَلى المـالِ أَبْقَى فَقُـواهُ أَحَـقُّ بـالإِبْقـاءِ

١٣ فَتَسـاوَى الرِّجـالُ في مِثْلِ هـذا فـالْمَجـانِينُ فيـهِ كالعُقَـلاءِ!

١٤ أيُّ خَيْرٍ لِـوالِـدٍ في بَنِيـهِ وَهـوَ عَنْهُمْ يَفِرُّ يَـومَ الْجَـزاءِ

١٥ والتَّقِيُّ الْمُـوَفَّـقُ البَرُّ مِنهُمْ عَـدَمٌ كالسَّماعِ بـالعَنْقـاءِ

---

(١٠) السامريّ هو الذي أضلَّ قوم موسى ـ في غيابه ـ ودعاهم إلى عبادة العجل . ونقل القرطبي في تفسيره (٢٤١/١١) عن الحسن أنّ الله تعالى جعل عقوبة السامريّ ألا يُماسّ الناس ولا يماسّوه عقوبةً له ولمن كان منه إلى يوم القيامة . وكأن الله عزّ وجلّ شدّد عليه المحنة بأن جعله لا يماسّ أحداً ولا يمكن أن يمسّه أحد ؛ وجعل ذلك عقوبة له في الدنيا .
ونقل أيضاً : لمّا قال له موسى : ﴿ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِسَاسَ ﴾ . خاف فهرب فجعل يهيم في البرية مع السباع والوحش ولا يجد أحداً من الناس يمسّه .
ـ وقد شبّه ابن زيدون نفسه بالسامريّ في تجافي الناس عنه في أيام محنته وسجنه ، فقال عن المُبتعدين عنه نكوصاً أو تَقِيَّةً :

ورأوني سـامريـاً يُتقى منـه الْمِسـاسُ!

ـ وقوله : « فمن الرّأي أن تكون جباناً » مأخوذ من بيت لأبي الطيب

وإذا لم يكن من المـوت بُـدٌّ فمن العجـز أن تكـون جبـانـاً

وغيَّر الشاعر المقصد وبعض الكلام .

(١٤) معنى البيت مقتبس من قوله تعالى ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَةُ . يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرءُ مِنْ أَخِيهِ . وأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امرئٍ مِنهُم يومئذٍ شأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [سورة عبس : ٨٠/٣٣ ـ ٣٧] .

(١٥) في القاموس : العنقاء طائر معروف الاسم مجهول الجسم . ونقل الثعالبي في كتابه : ثمار القلوب في المضاف والمنسوب (٤٥٠) عن أبي عثمان الجاحظ : الأمم كلها تضرب المثل بالعنقاء في الشيء الذي يُسمع به ولا يُرى .

١٦ وإذا مـــا الأديبُ شُبِّـــهَ فِيهِمْ   جَرَّ أذيَـــالَـــهُ مِنَ الْخُيَـلاء

١٧ وازْدَرى بالشُّيوخِ واعتَرَضَ الـدَّأْ...   ... مـاءَ جَهـلاً بِنَفْثَـةِ الرَّقَّـاء

١٨ ذَنَبٌ أَبْتَرٌ لَعَمْرُكَ خَيْرٌ   مِنْ طَـويـلٍ يُجَرُّ في الأَقْـذاء

١٩ وَمِنَ الغَبْنِ هَجْرُ دارِ خُلـــودٍ   وبَقـــاءٍ، ووَصْـلُ دارِ الفَنـــاء

٢٠ واشْتِغَـــــالٌ بِفَرتَنَى وبِلُبْنَى   وبِـدَعْـدٍ عَنْ خِطْبَـةِ الْحَـوراء

٢١ ولَئِنْ عـــادَ لَيْـلُ رَأْسِيَ صُبْحــاً   وَوَشَى بِي شَيْبِي إلى الْحَسْنَـــاء

٢٢ إنَّ عُـودي لِعَـاجِمِيْـهِ لَصُلْبٌ   وَفُـؤادي كصَـــارِمٍ مَضَّـــاء

٢٣ وأُقَضِّي لُبـــــــانَتِي وأُرَوِّي   عـامِـلَ الرُّمْـحِ مِنْ دَمِ العَـذْراء

٢٤ وأنَـــا قُرَّةٌ لِعَيْنِ صَــدِيقي   وَقَـذًى فِي مَحَـاجِرِ الأعْـداء

٢٥ هَـذَّبَتْني نَـوائِبُ الـدَّهْرِ حَتَّى   صِرْتُ كالوَصْلِ بَعْدَ طُولِ الْجَفاء

٢٦ فَسَفِينِي تَجْري بِـأَطْيَبِ رِيْـحٍ   لا بِرِيـحٍ ضَعِيفَـــةٍ نَكْبَـــاء

٢٧ بِعَلِّي بنِ تَـوْبَـةٍ فـازَ قِـدْحِيْ   وَسَمَتْ هِمَّتي عَلى الْجَـــوْزَاء

---

(١٧) الدأماء : البحر . ورقاهُ رقياً ؛ فهو رقّاء : نفث في عوذته .

(١٨) الأقذاء : جمع القذى وهو التراب المدقق .

(٢٠) فرتنى ، ولبنى ، ودعد ، من أسماء النساء يكثر ذكرهن في أشعار الغزل . والحوراء من الْحور العِين .

(٢٢) عاجم اسم فاعل من عجمَ (العود) إذا عضّه شديداً بالأضراس دون الثّنايا ليعلمَ صلابته .

(٢٣) اللُّبانة : الحاجة .

(٢٤) القُرَّة : كل ماقرّت به عيناك وسُررت به .

ـ القذى : ما يقع في العين وما يُرمى به مما يقع في الشراب كالتبن والوسخ .

ـ والمحاجر : جمع محجر (على وزن مَجْلس ومِنْبَر) مادار من العين وما بدا من البُرقع .

(٢٦) النكباء : ريح بين ريحين (كالريح التي بين الصَّبا والشَّمال) .

٢٨ فَهَنِيئاً لَنا وللدَّيْنِ قَاضٍ مِثْلُهُ عالِمٌ بِفَصْلِ القَضاء

٢٩ يَحْسُمُ الأَمْرَ بالسِّياسَةِ والعَدْ.. .. لِ كَحَسْمِ الْحُسَامِ لِلأَعْداء

٣٠ لَوْ إياسٌ يَلْقاهُ قالَ اعْتِرافاً غَلِطَ الواصِفُونَ لي بالذَّكاء

٣١ ولَوَانَّ الدُّهَاةَ مِنْ كُلِّ عَصْرٍ خَبَروهُ دانُوا لَهُ بالدَّهاء

٣٢ أو رأى أَحْنَفٌ ـ أَوَاحْلَمُ مِنْهُ ـ حِلْمَهُ ما انْتَمَوْا إلى الْحُلَمَاء

٣٣ لَوْ رَأَى الْمُنْصِفُونَ بَحْرَ نَداهُ جَعَلُوا حاتِماً مِنَ البُخَلاء!

٣٤ هُوَ أَوْفَى مِنَ السَّمَوْأَلِ عَهْداً ولَما زالَ مُغْرَماً بالوَفاء

٣٥ وحَيا الْمُزْنِ ذوحَياءٍ إذا ما هَمَلَتْ كفُّهُ بِوَبْلِ العَطاء

٣٦ يَشْهَدُ العالِمونَ في كُلِّ فَنٍّ أَنَّهُ كالشِّهابِ في العُلَماء

٣٧ وقُضاةُ الزَّمانِ أَرْضٌ لَدَيْهِ وهوَ مِن فَوقِهِمْ كأُفْقِ السَّماء

٣٨ لَتعرَّضْتُ مَدْحَهُ فكأنّي رُمْتُ بَحْراً مُساجِلاً بالدِّلاء

٣٩ فَأنا مُفْحَمٌ على أنَّ خَيْلي لا تُجارَى في حَلْبَةِ الشُّعراء

٤٠ لَكَساني بِمَجْدِهِ ثَوْبَ فَخْرٍ طالَ حَتَّى جَرَرْتُهُ مِنْ ورائي

---

(٣٤) اشتهر في التاريخ العربي ـ فيما اشتهر ـ حِلم الأحنف بن قيس ، كرَمُ حاتم الطّائي ، و إياس وذكاؤه ، ووفاء السَّموأل .

(٣٥) الحيَا : الْمَطر ، وهمل المطر : انصبَّ .

(٣٨) ساجله : باراه في استقاء أو في شرفٍ (وأصله في الاستقاء وذلك بأن يستقي الساقيـ فيخرج كلٌ في سجله مثلما يخرج الآخر فأيها انقطع فقد غلب ، ويُقال ذلك في المفاخرة ـ والدلاء : جمع الدلو .

(٣٩) أفحمه : أسكته في خصومه .

٤١ وَلَـوَٱنْصَفْتُـــهُ ـ وذاكَ قَليـــلٌ ـ كانَ خـــدِّي لرِجْلِـــهِ كالْحِـــذاء

٤٢ فـــأَنــا عَبْـدُهُ ـ وذاكَ فَخــاري، وجَمالِي بَيْنَ الـــوَرى وبَهـــائِي

٤٣ وثَنـــائي وَقْفٌ عَلَيْـــهِ وشُكْرِي ودُعَـــائي لَـــهُ بِطُـــولِ البَقَـــاء

---

(٤١) يتوجَّهُ الكلامُ على حِدَّته وشدّته على مَحْمَلِ المبالغة في توقير هذا القاضي الـذي تعرَّض لهجـاء بعض الشَّعراء ، وإلى حملة رُفعت فيها العرائض إلى السلطة ضدّه .

فهي قناعةٌ من الشاعر ونوعٌ مُسرف من التفدية والنكاية بالْخُصوم .

[٢٣]

وقال أيضاً ـ رضي الله عنه ـ(☆) :

[في القصيدة تصويرٌ لمشاهد من عذاب أهل النار (١ ـ ١٣) وتفرقة بين من ينجو وبين من يكون من أهل النار (١٤ ـ ١٥) وتحذيرٌ مِن نار جهنّم ودعوة للنجاة (١٦ ـ ١٨) وتعجب ممن لا يحفلون بالمآل إليها (١٩ ـ ٢١) ثم حديثٌ عن القلة الألبّاء يَفِرُّون إلى الله ، ويَهجرون الدنيا الخادعة وجزاؤهم على ذلك (٢٢ ـ ٢٥) .

ويَضرب الشاعر من نفسه المَثَل ؛ في طلب الخوف من النار والتفكير في عذابها والنَّجاة من مهاوي الدنيا (٢٦ ـ ٣١) ويُحَذِّرُ بلهجة خطابية (٣٢ ـ ٣٤) ويختم بوقفةٍ شخصيّة (٣٥ ـ ٣٨)] .

[من السَّريع]

١ وَيْلٌ لأَهْلِ النَّارِ في النَّارِ ... ماذا يُقاسونَ مِنَ النَّارِ

٢ تَنْقَدُّ مِنْ غَيْظٍ فَتَغْلي بِهِمْ ... كَمِرجَلٍ يَغْلي على النَّارِ

(☆) في شعر محمد بن يسير الرياشيّ (معجم الشعراء : ٢٥٣) :

ويلٌ لمن لم يرحمِ اللهُ ... ومن تكون النارُ مثواهُ

من طال في الدنيا به عمره ... وعاش فالموتُ قُصاراهُ

كأنّه قد قيل في مجلس ... قد كُنْتُ آتيه وأغشاهُ :

صار اليَسيريُّ إلى ربّهِ ... يَرْحَمُنا اللهُ وَإيّاهُ !

وهي قطعة تذكّر بقصيدتي الإلبيري ، السابقة [١٥] وهذه القصيدة .

(٢) يقال : قدّه ، فانقدَّ : أي شقّه فانشقّ .

=

٣	فَيَسْتَغيثُـــونَ لكَي يُعْتَبـــوا	ألا لَعـــاً مِنْ عَثْرَةِ النَّـــارِ
٤	وكُلُّهم مُعْتَرِفٌ نـــــــادِمٌ	لَـوْ تُقْبَـلُ التَّـوبَـةُ في النَّـارِ
٥	يَهْـوي بِهـا الأَشْقى عَلى رَأْسِـهِ	فـالـوَيْـلُ لـلأَشْقى مِنَ النَّـارِ
٦	فَتـــارَةً يَطْفـو على جَمْرِهـــا	وتـــارَةً يَرْسُبُ في النَّـــارِ
٧	وكُلَّما رامَ فِراراً بِهــــــا	فرَّ منَ النَّـــارِ إلى النَّـــارِ
٨	يَطـــــوفُ مِنْ أَفْعى إلى أَرْقَمٍ	وسُمُّهـــا أَقْـوى مِنَ النَّـــارِ
٩	وكَمْ بِهــــا من أرقَمٍ لا يَني	يَلْسَـعُ مَنْ يُسْحَبُ في النَّـــارِ
١٠	لا راحَـــةٌ فيهــا ولا فَتْرَةٌ	هَيْهــاتَ لا راحــةَ في النَّـــارِ
١١	أَنْفـاسُهـــا مُطبَقَـــةٌ فـوقَهُمْ	وهكـــذا الأَنْفـــاسُ في النَّـــارِ
١٢	سُبْحـــانَ مَنْ يُمسِـــكُ أَرواحَهُم	في الـــدَّرْكِ الأَسْفَـلِ في النَّـــارِ
١٣	ولـــو جِبـالُ الأَرْضِ تَهْـوي بهـا	ذابَتْ كَــذَوْبِ القِطْرِ في النَّـــارِ
١٤	طُـوبى لِمَنْ فـــازَ بِــدارِ التُّقى	ولم يَكُنْ من حَصَبِ النَّـــــارِ

= وفي سورة الملك [٨/٦٧] في صفة جهنم : ﴿ تَكادُ تَميَّزُ من الغيظِ كُلَّما أُلقيَ فيها فوجٌ سَأَلَهم خَزَنَتُها أَلَمْ يأتِكم نَذير ﴾ أي تكاد تتقطع وينفصل بعضها من بعض من شدة الغضب .

(٣) في سورة الكهف [٢٩/١٨] : ﴿ وَقل الحق من رَبِّكم فمن شاء فَليُؤمِنْ ومَن شـاءَ فَلْيَكْفُر إنّا أَعْتَدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سُرادقها وإن يَستَغيثوا يُغاثوا بماءٍ كالْمُهْلِ يَشوي الوُجوهَ بئسَ الشَّرابُ وساءَت مُرتَفَقاً ﴾ .

(٥) سورة الليل [١٤/٩٢ـ١٥] : ﴿ فَأنذرتُكُمْ ناراً تَلَظَّى . لا يَصْلاها إلاّ الأَشْقى ﴾ .

(٨) الأرقَم : ذَكَرُ الْحَيّات ، أو أخبثها .

(٩) يقال : فلان لا يني يفعل كذا : أي لا يزال .

(١٣) القِطرُ : النحاس الذائب أو ضرب منه .

(١٤) الحصَبُ : مـا يُرمى بـه في النـار حصب أو لا يكون الحطب حصبـاً حتى يُسجر . وفي سـورة الأنبياء [٩٨/٢١] قوله تعالى : ﴿ إنَّكم وما تَعْبُدونَ مِن دونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ .

١٥ وَوَيْــــلُ مَنْ عُمِّرَ دَهْراً ولم ... يُرْحَمْ ولم يُعتَــقْ مِنَ النَّــارِ

١٦ يـا أيُّهـا النَّـاسُ خُـذوا حِـذْرَكُمْ ... وحَصِّنـوا الْجَنَّـةَ للنَّـارِ

١٧ فــإنَّهــا مِنْ شَرِّ أَعْــدائِكُمْ ... مـا في العِـدا أَعْـدى مِن النَّـارِ

١٨ وأكْثِروا مِنْ ذِكْرِ مَـــوْلاكُمُ ... فَـذِكْرُهُ يُنْجي مِنَ النَّــارِ

١٩ واعَجَبــاً مِنْ مَرِحٍ لاعِبٍ ... يَلْهـو ولا يَحفِـلُ بـالنَّـارِ

٢٠ يـوقِنُ بـالنَّـارِ ولا يَرْعَـوي ... كأَنَّـهُ يَرْتـابُ في النَّـارِ

٢١ وَهــوَ بِهــا في خَطَرٍ بَيِّنٍ ... لـو كاسَ مـا خـاطَرَ بـالنَّـارِ

٢٢ إنَّ الألِبَّـــاءَ هُمُ قِلَّـــةٌ ... فَرُّوا إلى اللهِ مِنَ النَّــــارِ

٢٣ وطَلَّقـوا الـدُّنيـا بَتـاتـاً ولَمْ ... يَلْـوُوا عَلَيْهـا حَـذَرَ النَّـارِ

٢٤ وأَبْصَروا مِنْ عَيْبِهـــا أَنَّهـــا ... فَتَّـانَـةٌ تَـدْعـو إلى النَّـارِ

٢٥ فَطــابَتِ الأَنْفُس مِنْهُمْ بِــأَنْ ... أَمَّنَهُمْ مِنْ فَـــزَعِ النَّــارِ

٢٦ واللهِ لـــو أَعْقِـــلُ لَمْ تكتَحِــلْ ... بـالنَّـوْمِ عَيْني خيفَـةَ النَّـارِ

٢٧ ولا رَقـــا دَمْعي ، ولا عِلْمَ لي ... أَنّيَ في أَمْنٍ مِنَ النَّــــارِ

٢٨ ولم أَرِدْ مـــاءً ولا ســـاغَ لي ... إذا ذَكَرْتُ الْمُهْـلَ في النَّــارِ

---

(١٦) سورة النساء [٤/٧١] : ﴿ يـا أيُّهـا الّـذينَ آمَنـوا خُـذوا حِـذْرَكُمْ فـانْفِروا ثُبـاتٍ أو انْفِروا جَميعاً ﴾ .

(٢١) الكَيْسُ ـ مصدر : كاسَ ـ العقلُ ، والجود ، والغلبة بالكياسة .

(٢٢) الألِبّاء : جمع لبيب ؛ وهو الفَطِنُ الذَكِيّ .

(٢٣) بَتَّ الطَلاقَ وأبَتّه : أوقعه ثلاثاً باتّاً ؛ وقد سبق في القصيدة الأولى ، البيت الثالث .

(٢٤) في سورة الحديد [٧٥/٢٠] : ﴿ وما الحياةُ الدُّنيا إلاّ متاعُ الغُرور ﴾ .

(٢٧) رقأ الدمعُ والدَّمُ ونحوُهما : سكن وجفّ وانقطع بعد جريانه .

(٢٨) الْمُهْلُ : الْمَعْدِنُ الْمُذابُ .

٢٩	ولم أجِـــدْ لـــــذَّةَ طعْمٍ إذا	فَكَّرْتُ في الـزَّقُّـوم في النَّـــارِ
٣٠	أيُّ الْتِـــــــذاذٍ بنَعيمٍ إذا	أدَّى إلى الشّقْــوَةِ في النَّـــارِ
٣١	أمْ أيُّ خَيْرٍ في سُرورٍ إذا	أعْقَبَ طـولَ الْحُـزْنِ في النَّـــارِ
٣٢	فَفكِّروا في هَـوْلِهـا واحْـذَروا	مـا حَـذَّرَ اللهُ مِنَ النَّـــارِ
٣٣	فـإنَّهـا راصِـدَةٌ أهْلَهـا	تَـدُعُّهُمْ دَعّـاً إلى النَّـــارِ
٣٤	فَلَيْسَ مِثْلي طـالِبـاً حَبَّـةً	إلاَّ الْمُعـافـاةَ منَ النَّـــارِ
٣٥	وطـالَما استَرْحَمتُـهُ ضـارِعـاً	يـا رَبُّ حرِّمْني على النَّـــارِ
٣٦	فَـأنْتَ مَـوْلايَ ولا رَبَّ لي	غَيْرُكَ؛ أعْتِقْني مِنَ النَّـــارِ
٣٧	ولم تَـزَلْ تَسْمَعُني قـائِـلاً:	أعـوذُ بـاللهِ مِنَ النَّـــارِ

(٢٩) في سورة الدّخان [٤٤/٤٣ـ٤٦] : ﴿ إنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ . طَعامُ الأثيمِ . كالْمُهْلِ يَغْلِي في البُطونِ كَغَلْيِ الْحَميم ﴾ .

(٣٣) الدَّعُّ : الدَّفْعُ العنيف .

(٣٤) كذا في الأصل المخطوط : « طالباً حَبَّةً » مضبوطة مشكولة ؛ ويتوجّه لي أن أقرأها : « طالباً جَنَّةً » .

[٢٤]

وقال أيضاً ـ رضي الله عنه ـ :

[أبصر أول شعرة بيضاء فارتاع لذلك ، وأنذر نفسه بالموت ونصحها بألا تستهين بالشيب ولو كان في شعرة واحدة (١ ـ ٢) وضَرب مثلاً من الطلّ والمطر الغزير (٣) والصُّبح الذي يبدأ بخيط أبيض ثم يطوي سوادَ اللّيل (٤) فنذيرُ الشَّيب يُؤذن بالأُفول ويؤثر في قوة المرء ويحجبه عن نشاط الشّباب (٥ ـ ٩) .

وطلَب لزوم باب الله والإخلاص له تعالى (١٠ ـ ١١)] .

[من الوافر]

١ بَصُرْتُ بِشَيْبَـةٍ وخَطَتْ نَصيلي فَقُلْتُ لَـهُ تـأهَّبْ للرَّحيلِ

٢ ولا يَهُنِ القَليـلُ عليـكَ مِنْهـا فَما في الشَّيْبِ وَيْحَكَ من قَليلِ !

(١) بَصُرَ بالشيء : رآه . ويقال (بَصُر بالشيء) إذا انضمت رؤية القلب إلى رؤية العين . ومعنى وخطه الشيبُ : خالطه . والنَّصيل في القاموس : الحنك ، وفي أساس البلاغة : هو المفصَل بين الرأس والعنق من تحت اللحيين .
رأى الشاعر شيبة ظهرت في جانب رأسه وهو أول ما يظهر الشيب فيه عادة فخاطب نفسه حينئذ ، وقال لها : تأهبي للموت ... إلخ .
وفي البيت التفات من ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب ؛ والمقصود واحد هو الشاعر نفسه . وفي بهجة المجالس ٢١١/٢ رأى إياس بن قتادةَ شعرةً بيضاء في لحيته ، فقال : أرى الموتَ يطلبني ، وأُراني لاأفوته . أعوذ بك يا ربّ من فجأة الموت . يا بني سعد ! قد وهبتُ لكم شبابي فهَبوا لي شيبي !

(٢) هان عليه الأمر : كان يسيراً لا أهمية كبيرة له .

٣ وكم قَـدْ أبْصَرتْ عَيْنـاكَ مُـزْنـاً أصـابَـكَ طَلُّهـا قَبْـلَ الْهُمـولِ

٤ وكَمْ عـايَنْتَ خَيْـطَ الصُّبْحِ يَجْلـو سـوادَ اللَّيْـلِ كالسَّيْفِ الصَّقيـلِ

٥ ولا تَحقِرْ بِنُـذرِ الشَّيْبِ واعلَمْ بـأنَّ القَطْرَ يَبْعَثُ بـالسُّيـولِ

٦ فكَمْ مِمَّنْ مَفـارِقُـهُ ثَغـامٌ وأنْجُمـهُ على فَلَـكِ الأُفـولِ

٧ تَعـوَّضَ مِنْ ذِراعِ الْخَطْـوِ فِتْراً ومِنْ عَضْبٍ بِمَفْلـولٍ كَليـلِ

٨ فكَيْفَ بِمِثْلِـهِ لِمَهـاةِ رَمْـلٍ كَـأنَّ وِصـالَهـا نـومُ العَليـلِ

٩ تَطَلُّبُ غَيرِ مـا في الطَّبْـعِ صَعبٌ عَليـكَ، فَـدَعْ طِلابَ الْمُسْتَحيلِ !

١٠ ولازِمْ قَرْعَ بـابِ الرَّبِّ دَأبـاً فـإنَّ لُـزومَـهُ سَبَبُ الـدُّخـولِ

١١ فَما مِنْ مُخْلِصٍ للهِ إلاّ على أعْمالِـهِ أَثَرُ القَبـولِ

---

(٣) المزن (جمع المزنـة) : السّحـاب ذو المـاء . والطـلّ : المطر الضعيف أو أخفُّ المطر . وهملت السماء : دام مطرها في سكون وضعف .

(٥) نُذُر : جمع نذير ، وهو المنذر والحذَر . ونص المخطوطة (ولا تحقر بنذر الشيب) .

وفي الشريشي (ولا تحقر بنور الشيب) ولم أجد من عدّى فعل حقر بـالبـاء ؛ ولكن الشـاعر ضمن فعل حقر معنى فعل ازدرى أو أزرى .

(٦) الثّغام (واحدته ثغامة) : نبتٌ أخضر ذو ساق يبيضّ ابيضاضاً شديـداً إذا يبس . يُشبَّـهُ بـه الشيب .

ـ ويقال في الفعل : أثْغَم الرأسُ : صار كالثّغامة بياضاً .

(٧) أي كِبر فضَعُف وتقـارَب خَطْوُه . والعَضْبُ (في الأصل) صفـةٌ للسيف ومـا يُشبهـه : وهـو القاطع ، والمفلول : المثلوم ، والسيف الكليل : الذي ينبو ولا يقطع .

ـ والكلام في البيت على المجاز ،

(٨) المهاة : البقرة الوحشية البيضاء . تشبّهُ المرأة الحسناء بها .

(٩) والبيت في المقصد العام كقول أبي الطيب : (وتأبى الطباع على الناقل) .

[٢٥]

وقال - رحمه الله - يخاطب صنهاجة[☆] إذ كان اليهودي النَّغراليُّ - لعنه الله - وزيراً وكاتباً لباديس بن حبُّوس صاحب أغرناطة :

[يبدأ الشاعر بتنبيه صنهاجة على خطأ أميرهم (١ - ٣) لاختياره ابن النغريلة الذي فضل قومه على المسلمين وظلمهم ٤ - ٦) وتحميل باديس المسؤولية (٧ - ١٠) وما يستحق الوزير وقومه من المعاملة بسبب أفعالهم (١١ - ١٥) وخطاب لباديس نفسه (١٦ - ١٨) وتبصير له بصنيعهم ومكايدهم عامة وللنغريلي خاصة (١٩) وتذكير له بأفكار شرعية (٢٠ - ٢١) وبيانه لمفاسد يهود (٢٣ - ٢٤) واستثارة بمواطن الخير في باديس (٢٥ - ٢٦) وسرد لتجربة الشاعر معهم ومشاهداته (٢٧ - ٣٥) ووقفة عند النغريلي وطغيانه وإسرافه (٣٦ - ٣٧) وسوء نيته (٣٨ - ٣٩) وتحريض مباشر للتخلص من النغريلي وقومه (٤٠ - ٤٧) وتوجيه باديس إلى تقوى الله (٤٨) وأحكام شرعه] .

(☆) صنهاجة : جِيلٌ ضخمٌ من البَربر من بُطون البَرانِس كان لهم شأنٌ سياسيٌّ كبيرٌ في المغرب والأندلس . وتفرّع من صنهاجة فروع كثيرة قُدّرت بنحو سبعين بطناً .

- والنّغرالي : هو يوسف بن إسماعيل بن النّغريلة : خَدم دَولة بني زيري بعد أبيه إسماعيل وقويَ نفوذُه ، ومكّن لبني جِلدته ، وأساءَ السّيرة في العامّة وأساء إلى الْمُسلمين بالكلام في القُرآن . ولكنّه أرضى باديس صاحب غَرْناطة بكفاية الجِباية ووفرتها !

- وأسهم الإلبيريّ وغيرهُ من الفُقهاء والعُلَماء وأهل الرأي في كشف تآمر ابن النّغريلة وضُلوعه في اغتيال ابن الأمير بُلُقّين بن بادِيْس (وكان بُلُقّين يكره ابن النغريلة ودسائسه) واشتعلت

[من المتقارب]

١	ألا قُـلْ لِصِنْهـاجَـةٍ أجمَعينْ	بُـدورِ النَّـدِيِّ وأُسْـدِ العَرينْ
٢	لقـدْ زلَّ سَيِّـدُكُمْ زَلَّـةً	تَقرُّ بهـا أعيُنُ الشَّـامِتينْ
٣	تَخيَّر كاتبَـهُ كافِراً	ولـو شـاءَ كانَ مِنَ الْمُسلمينْ
٤	فعـزَّ اليَهـودُ بـهِ وانْتَخَـوا	وتـاهـوا وكانـوا مِنَ الأَرْذَلينْ
٥	ونـالـوا مُنـاهُمْ وجـازوا الْمَـدى	فحـانَ الهلاكُ ومـا يَشْعُرونْ
٦	فكَمْ مُسْلِمٍ فـاضـلٍ قـانِتٍ	لأَرذَلِ قِردٍ مِنَ الْمُشركينْ
٧	ومـا كانَ ذلِـكَ مِنْ سَعْيِهِمْ	ولكنَّ مِنَّـا يقـومُ الْمُعينْ

ثورةً في غرناطة ضد ابن النغريلة ورهطه انتهت بالقضاء عليه ، والتخلّص منه .

ـ وباديس بن حَبُّوس : أمير غرناطة بعد أبيه حَبُّوس . ولي سنة ٤٢٨ وتلقب بالمظفّر بالله الناصر لدين الله . كتب له إسماعيل بن النغريلة ثم ابنُه يوسف فتمكن اليهود في غرناطة وعاثوا وبَغَوا . ولَمّا انكشف لباديس غدر ابن النغريلة بابنه ومُشاركته في مؤامرة للإطاحة به لمصلحةِ ابن صُمادح صاحب الْمَرِيَّة ؛ سمع من الإلبيري وغيره ، وأذْعَن لِهَيْجِ العامّة الذين قَتلوا ابن النغريلة ونفراً من قومه .

وكان باديس شديداً صارماً ، بالغ السطوة أحياناً ، وتوفي سنة ٤٦٥ .

ـ أغرناطة : حاضرةُ كورة إلبيرة وعاصمة دويلة بني زيري . كبرت بعد خراب إلبيرة وحلت محلها في المنطقة (يُقال فيها غَرْناطة وأَغرناطة) .

(١) النَّدِيّ : مجلسُ القوم ، ومُتَحدَّثهم ماداموا فيه ؛ والندي تطلق على أهل المجلس .

(٤) انتخى : افتخر وتعاظم .

(٦) قَنَتَ لله : أطاعه : أو أطاعه في خَشوع وخضوع .

وقول الشاعر « لأَرْذَلِ قِرْدٍ من الْمُشركين » هجاء لليهود فقد كان قومٌ من أسلافهم اعْتَدَوْا في السَّبت فعوقبوا بأن مُسِخوا قِرَدَةً خاسئين . قال تعالى في سورة البقرة [٦٥/٢] : ﴿ ولَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذينَ اعْتَدَوْا مِنْكُم في السَّبت فَقُلْنا لهم كونوا قِرَدَةً خاسِئينَ ﴾ .

٨ فهَلاَّ اقْتَـــدى فِيهِمُ بـــالأُلى   من القــــادَةِ الخِيرَةِ الْمُتَّقينْ
٩ وأنْــزَلَهُمْ حَيْثُ يَستـــاهِلــونَ   وَرَدَّهُمُ أَسفَــلَ السَّـــافِلينْ
١٠ وطــافــوا لَــدَيْنــا بــأَخْراجِهِمْ   عَلَيهِمْ صَغــارٌ وذُلٌّ وهــــونْ
١١ وقَمُّـوا الْمَـزابِـلَ عَنْ خِرْقَـــةٍ   مُلَـوَّنَــــةٍ لِـدِثــارِ الــدَّفينْ
١٢ ولَمْ يَستَخِفُّــوا بـــأَعــلامِنـــا   ولم يَستَطيلــوا على الصَّـــالِحينْ
١٣ ولا جــالَســوهُم وهُمْ هُجْنَــةٌ   ولا واكَبـــوهُم مـــعَ الأَقْرَبينْ
١٤ أَبـــادِيسُ أَنتَ ٱمْرُؤٌ حـــاذِقٌ   تُصيبُ بِظَنِّـــــكَ نَفْسَ اليَقينْ
١٥ فَكَيفَ ٱختَفَتْ عَنــكَ أَعيــانُهُمْ   وفي الأَرضِ تُضْرَبُ مِنهــا القُرونْ
١٦ وكَيْفَ تُحِبُّ فِراخَ الــزِّنـــا   وهُمْ بَغَّضــوكَ إلى العـــالَمينْ
١٧ وكيفَ يَتِمُّ لـــــكَ الْمُرْتَقى   إذا كُنْتَ تَبْني وهُم يَهْــدِمــونْ
١٨ وكيفَ اسْتَنَمْتَ إلى فــاسِــقٍ   وقـــارَنْتَـــهُ وهــو بِيْسَ القَرينْ

(٩) يستاهلون على تسهيل الهمزة . وفي الشطر الثاني اقتباس قرآنيّ .

(١٠) الأخراج : جمع الْخَرْج ، أصله اسم ما يخرج من الأرض وجملة معناه : الغَلَّة ، ثم استُعمل في منافع الأملاك وريع الأرض ، وغلّة العبيد ، والحيوانات . والْخَرْج : الضّريبة على الرُّؤوس وعلى الدخل . والشاعر يشير إلى الآية الكريمة ﴿ حَتّى يُعْطوا الجزيةَ عن يَدٍ وهُمْ صاغِرون ﴾ [التوبة ٩/٢٩] .

(١١) قَمّ البيت : كنسه .

(١٢) الأعلام : ج علم : سيّد القوم : والمقصود أعلام المسلمين الذين تعرضوا للاستخفاف من ابن النغريلة ورهطه .

(١٣) الْهُجنة : ما يُعاب : ويلزمُ أحدهم من العيب ، والْهُجنَة في النَّسب كرمُ الأب مع عدم كرم الأم ، وعكسه الغُرْفَة .

(١٦) الفراخ جمع الفَرْخ : وهو ولد الزِّنا !

(١٨) استنام لكذا : سكن إليه سكون النائم .

ـ وقوله بيس : أي بئس : سُهّلت الهمزة .

١٩	وقـــدْ أنـــزلَ اللهُ في وَحْيِـــهِ	يُحَــذِّرُ عَن صُحْبَــةِ الفــاسقينْ
٢٠	فـلا تَتَّخِــذْ مِنْهُمُ خــادِمــاً	وذَرْهُم إلى لَعنَـــةِ الــلاَّعِنينْ
٢١	فقـــد ضَجَّتِ الأَرضُ مِنْ فِسقِهِمْ	وكادَتْ تَميــدُ بِنـــا أَجْمَعينْ
٢٢	تَــأَمَّـلْ بِعَيْنَيْــكَ أَقْطــارَهــا	تَجِـدْهُمْ كِـلاباً بِهـا خـاسِئينْ
٢٣	وكيفَ انفَرَدْتَ بِتَقريبِهِمْ	وهُم في البِـلادِ مِنَ الْمُبعَـــدينْ
٢٤	عَلى أَنَّـــكَ الْمَلِـــكُ الْمُرتَضى	سليـلُ الْمُلـوكِ مِنَ المـاجِـدينْ
٢٥	وأَنَّ لـــكَ السَّبْــقَ بَيْنَ الــوَرَى	كَما أَنتَ مِنْ جِلَّــةِ السَّـــابِقينْ
٢٦	وَإنِّي احتَلَلْتُ بِغَرْنـــاطَـــةٍ	فكُنتُ أَراهُمْ بِهـــا عــــابِثينْ
٢٧	وقَـــد قَسَّمـوهـــا وأَعمــالَهـــا	فَمِنهُمْ بِكُـــــلِّ مَكانٍ لَعينْ
٢٨	وهُمْ يَقبِضـونَ جِبــايــاتِهـــا	وهم يَخضِمـــونَ وهُم يَقضِمـــونْ

---

(١٩) وفي سورة التوبة [٩/٩٦] : ﴿ يَحْلِفونَ لَكُمْ لِتَرْضَوا عَنْهُم فإنْ تَرْضَوا عَنْهُم فإنَّ اللهَ لا يَرْضى عَنِ القَوْمِ الفاسِقين ﴾ .

(٢٠) يعني الخدمة الإداريّة والسّياسية . والشاعر يذكّر باديسَ بحكم الله في اتّخاذه ابنَ النغريلة من دون المؤمنين ، وذلك أنّ الله تعالى قال : ﴿ لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤمِنُونَ الكَافِرينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ في شَيْءٍ إلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ المَصِيرُ ﴾ [آل عمران ٣/٢٨]

(٢٦) احتللت بغرناطة : أي نزل فيها واتخذها دار إقامة بعد نزوحه عن إلبيرة .

(٢٨) الْخَضْمُ : الأكل بأقصى الأضراس ، والقَضْمُ : الأكل بأدناها . وفي حديث أبي ذرّ رضي الله عنه : « تأكلون خضماً ونأكل قضماً » . وفيهما كناية عن الأكل الطيب الطري والأكل الجاسي من ذي التقشف .

يقول : أكل اليهود الأخضر واليابس ولم يُبقوا لنا شيئاً !

٢٩	وهُم يَلبِسـونَ رفيـعَ الكُسـا	وأَنْتُمْ لأَوْضَعِهـا لابِسـونْ
٣٠	وهُم أُمَنـاكُمْ على سِرِّكُمْ	وكيفَ يَكـونُ خَـؤونٌ أَمينْ ؟
٣١	وَيَـأْكُـلُ غيرُهُم دِرْهَماً	فَيُقْصى، ويُـدنَـوْنَ إذْ يـأكلـونْ
٣٢	وقَـدْ نـاهَضـوكُمْ إلى رَبِّكُمْ	فَما تَمْنَعـونَ ولا تُنكِرونْ
٣٣	وقـد لابَسـوكُمْ بِـأَسْحـارِهِمْ	فَما تَسمَعـونَ ولا تُبْصِرونْ
٣٤	وَهُمْ يَـذبَحـونَ بِـأَسْـواقِهـا	وأَنْتُمْ لأَطرافِهـا آكِلـونْ
٣٥	وَرَخَّمَ قِرْدُهُمْ دارَهُ	وأَجْرى إلَيهـا نَميرَ العُيـونْ
٣٦	فصـارَتْ حـوائِجُنـا عِنـدَهُ	ونَحْنُ على بـابِـهِ قـائِمـونْ
٣٧	وَيَضْحَـكُ مِنّـا ومِنْ ديننـا	فـإِنّـا إلى رَبِّنـا راجِعـونْ
٣٨	وَلَـوْ قُلتَ في مـالِـهِ إنَّـهُ	كَمالِـكَ كُنْتَ مِنَ الصّـادِقينْ

---

(٢٩) الكُسا جمع الكُسْوَةَ (بضم الكاف وكسرها) ، وهي اللباس .

(٣٠) أُمَناكم : أي أمناؤكم .

(٣١) أكل المال بالباطل : صَرفه إلى ما يُنافي الْحَقَّ .

(٣٢) ناهضه : قاومه .

(٣٣) يقولون إن ابن النغريلة ورهطه خدعوا صنهاجة وأهل غرناطة والأمير بما برعوا فيه من عمل السِّحر أو جعل مخادعتهم كالسِّحر .

(٣٤) قوله ـ بأسواقها ـ يعني : بأسواق غرناطة .

(٣٥) رخَّم الدَّار : جعلَها من الرُّخام (وما يُشبهه مَّا يزين به وتَكْثُر نفقته) .

(٣٧) كان ابن النغريلة قال كلاماً استخفافياً بالقرآن الكريم والإسلام وتصدّى له العُلماء والفقهاء وردّوا عليه أقواله وسخافاته . وقد بقي في الكتب بقايا من تلك الوقفة أهمّها كتاب الإمام ابن حزم في الردّ على ابن النغريلة (راجع مقدمة المحقق ص ١٤ ـ ١٥) .

(٣٨) يُريد : إن مال هذا الوزير المخادع من مالك (مال الدَّولة) فلا جناح عليك في أن تردّه إلى مَعْدِنه .

٣٩ فَبــادِرْ إلى ذَبْحِـهِ قُرْبَـةً — وضَحِّ بِــهِ فهـوَ كَبْشٌ سَمين !
٤٠ ولا تَرْفَـعِ الضَّغْـطَ عَنْ رَهْطِـهِ — فقـد كَنَـزوا كُـلَّ عِلْـقٍ ثَمينْ
٤١ وفَرِّقْ عِـداهُم وخُـذْ مـالَهُمْ — فـأنتَ أحَـقٌّ بِما يَجْمَعـونْ
٤٢ ولا تَحْسِبَنْ قَتلَهُمْ غَـدْرَةً — بَـلِ الغَـدْرُ في تَرْكِهِمْ يَعْبَثـونْ
٤٣ وقَـدْ نَكَثـوا عَهدَنـا عِنـدَهُمْ — فكَيْفَ تُـلامُ عَلى النَّـاكِثينْ ؟
٤٤ وكيفَ تكـونُ لَهُمْ ذِمَّـةٌ — ونحنُ خُمـولٌ وهُمْ ظـاهِرونْ ؟
٤٥ ونحنُ الأذِلَّـةُ من بَينِهِمْ — كأنَّـا أسَـأْنـا وهُم مُحْسِنـونْ !
٤٦ فَـلا تَرْضَ فينـا بِـأَفْعـالِهِمْ — فـأَنْتَ رَهينٌ بِما يَفعلـونْ
٤٧ وراقِبْ إلهَـكَ في حِـزْبِـهِ — فحِـزْبُ الإلَـهِ هُمُ الغـالِبونْ

---

(٣٩) استفادَ الشاعر من معنى التَضحية اللغوي والشَرعي .

(٤٠) العلْق : النَفيس .

(٤١) أي وفرقهم بعد تجمّعهم وتكالبهم فإنهم عداً .

(٤٢) يقول : نقضوا الذِمّة فكافئهم بما نقضوا .

(٤٣) نكث العَهْدَ (والْحَبْلَ والعَقْد) : نقضه .

(٤٤) خمول : أي خاملون .

(٤٥) يصف عسف الوزير ومن استخدمه من قومه .

(٤٦) أي باديس يحمل الأوزار التي يقترفها ابن النغريلة وجماعته .

(٤٧) في سورة المائدة [٥٦/٥] : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسولَهُ والَّذينَ آمَنوا فإنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغالِبونَ ﴾ .

[٢٦]

وقال أيضاً ـ رضي الله عنه ـ :

[عاش الإلبيري مدة طويلة من حياته (بعد الشباب الأول) في ظِلِّ الفتنة التي أودت بالدولة الأموية . وظِلِّ دُوَيلات الطوائف التي : تَناهبت الأندلسَ وقسمتها ، وتَهاوَن زعماؤها مع العدوّ الشرس . وعدَّ الإلبيريُّ تلك الأيام من أيام الفِتن (يراجع البيت الأول وشَرْحُه) . ورأى أن أُولي العلم من المسلمين آنذاك تنبهوا لذلك الأبيات (١ ـ ٣) وكانوا في مراكز مختلفة كلها صالح نافع ملائم : فبعضُهم عالم عامل (٤ ـ ٦) وبعضهم منقطع إلى الجهاد يقاتل العدوّ عن صِدق نيّة وخُلوص إيمان (٧ ـ ٨) وبعضهم عابدٌ منقطع عن النّاس غير خائض في الفتن (٩ ـ ١٢) وبعضُهم منقطع في رُؤوس الجبال (١٣ ـ ١٥) وبعضُهم التفت إلى الله تائباً عابداً (١٦ ـ ١٨) أو منقطعاً ذاكراً (١٩ ـ ٢٥) ويشيد بهؤلاء جميعاً (٢٦ ـ ٢٩) ويتمنّى لو يكون خادماً لهؤلاء ؛ ويُثني عليهم ويتلوَّمُ على تَقصيره (٣٠ ـ ٣٢) ويُنحي باللائمة على الدنيا (٣٣ ـ ٣٤) ويصف نفسه بالغَفْلَة لعدم الانتباه لواعظ الشَّيب (٣٥ ـ ٣٦) ولِسَيْرِهِ سِيرة العَجُوز المتصابي (٣٧ ـ ٤٠) ويرجعُ إلى نفسه (٤١ ـ ٤٣) ويختم بالدُّعاء والرَّجاء (٤٤ ـ ٤٥)] .

[من السريع]

١ إنَّ أُولي العِلْمِ بِما في الفِتَنْ تَهَيَّبُوها مِن قَديمِ الزَّمَنْ

(١) الفتن : جمع الفتنة : وهي هنا ما يقع فيه الناس من الاختلاف أو الحرب والقتال .

٢ فـــاسْتَعْصَمُـوا اللهَ وكانَ التُّقَى — أَوْفى لَهُمْ فيهـــا مِنَ أوفى الْجُنَنْ
٣ واجتَمَعُـوا في حُسْنِ تَـوفيقِـــهِ — وافْتَرَقُــوا في كُــلِّ سَعيٍ حَسَنْ
٤ فعـــالِمٌ مُسْتَمجَـدٌ عــامِـلٌ — يَسْلُـكُ بـالنّـاسِ سَـواءَ السُّنَنْ
٥ يَنْثُرُ مِنْ فِيــــهِ لَهُمْ جَـوْهراً — من عِلْمِـــهِ ليسَ لَـــهُ مِنْ ثَمَنْ
٦ يَقْسِمُـــــهُ طُــلاَّبَـــهُ بَيْنَهُم — قِسْمَـــةَ تَعــديـلٍ بِقَــدْرِ الفِطَنْ
٧ وبُهْمَـــــةٌ مُخْتَرِطٌ سَيْفَـــــهُ — يغمِــدُهُ في هـــامِ أَهْــلِ الــوَثَنْ
٨ يَلْبَسُ مِنْ إيمـــانِـــه لأمْـــةً — فَضْفــاضَــةً يَغْنَى بِهَــا عَن مِجَنْ
٩ وحـــابِسٌ في بَيْتِـــهِ نَفسَـــهُ — مُعتَــزِلٌ مُستَمسِــكٌ بـــالسُّنَنْ
١٠ يَـأخُـذُ مِنْ دُنيَـاهُ قُـوتـاً لَـهُ — مُقْتَنِعـــاً مِثْـلَ عِــذارِ الرَّسَنْ
١١ قَـــد جَعَـلَ البَيْتَ كَقَبْرٍ لَـــهُ — وبُرْدَه فيــــهِ لــــهُ كالكَفَنْ
١٢ فهــوَ خَفيفُ الظَّهرِ لكنَّـــــهُ — أَثْقَـــلُ في مِيزانـــهِ مِن حَضَنْ

---

(٢) في الأساس : أنا معتصم بفلان ومستعصم به .
فالفعل استعْصم لهذا المعنى يتعدى بالباء .
ـ والْجُنَن : جمع الْجُنة ، وهو ما يقي ويحمي .

(٤) السَّواء : الْمُستوي .

(٥) أي لا يُقَدّر بثمن لارتفاع قِيمته (كلُّ ثمنٍ فهو دونه) .

(٧) البُهْمَة : بضم الباء : الشجاع الذي لا يُهتدى من اين يُؤتى .
ـ واخترط السيف : استلّه من غمده .

(٨) اللأمة : الدرع الحصينة ، والْمِجَنّ : التُّرس .

(١٠) اقتنع : اتخذ القناع (أي يأخذ القليل ويحجز نفسه عن الكثير) .

(١٢) في متن اللُّغة أن (خفيف الظهر) هو القليل العيـال ؛ ولكن الشـاعر كنّى هنـا بخفـة الظهر عن قلّة المال والنَّشب والحظّ من الدُّنيا .
ـ وحَضَنٌ : جبلٌ بنجد ، ضربه مثلاً .

١٣	وهـــاربٌ شُحّـــاً عَلى دِينِـــهِ	إلى البَراري ورؤوسِ القُنَنْ
١٤	يـأنَسُ بـالـوَحْـدَةِ في بِيْـدِهـا	أكْثَرَ مِن تَـأنِيْسِـهِ بـالسَّكَنْ
١٥	لا يَرْهَبُ الأُسْـدَ ومَن لم يَخُنْ	سَيِّـدَهُ في عَهْـدِهِ لم يُخَنْ
١٦	وتـائِبٌ مِنْ ذَنْبِـهِ مُشْفِـقٌ	يَبكي بُكاءَ الـواكِفَـاتِ الهُتُنْ
١٧	تَخـالُـهُ بينَ يـدي رَبِّـهِ	في ظُلَمِ اللَّيْـلِ كمِثْـلِ الغُصُنْ
١٨	إنْ مَهَّـدَ النَّـاسُ لِـدُنْيَـاهُمُ	شَمَّرَ في تَمهِيْـدِهِ لِلْجَنَنْ
١٩	كأنَّما الأرضُ لَـهُ أيكَـةٌ	وهـوَ بِهَـا قُمْرِيَّـةٌ في فَنَنْ
٢٠	وصَـامِتٌ، في قَلبِـهِ مِقْوَلٌ	بـالـذِّكْرِ للهِ طَـويـلٌ لَسِنْ
٢١	تراهُ كالأبْلَـهِ في ظَـاهِرٍ	وَهْـوَ مِنَ أذْكى النَّـاسِ فيما يَظُنْ
٢٢	قَـد نَـوَّرَ اللهُ لَـهُ قَلْبَـهُ	بـالـذِّكْرِ في السِّرِّ لَـهُ والعَلَنْ
٢٣	فـإنْ يَبِنْ بـالفِكْرِ عَن صَحبِـهِ	فَجِسْمُـهُ بينَهُمُ لم يَبِنْ

(١٣) قُنَن الجبال ، وقُلَل الجبال : أعاليها ، جمع قُنَّة .

(١٤) يقال : سكن داره : السَّكَن بالتحريك ، والسَّكْن بالسكون : أهل الدار .

ـ وأورد الشاعر التَّأنيسَ (وهو مصدر أنَّس) في محل الأنس (مصدر أنِس) .

(١٦) الواكفات : جمع الواكفة ، والهُتن : جمع الهتون : وهما صفتان للسحاب الممطر .

(١٨) الْجَنَن : القبر .

(١٩) القُمريّة (والذكر قُمري) نوع من الحمام ؛ ونوع من الأطرغلاّت صغير الحجم لطيف الشكل ويُعرف عند أهل الشام بالكريم . والأيكة : الشجرة الكبيرة .

ـ وإنما شبَّه الشاعر الرجل التائب العابد بالقُمْري ، لأن القمري كثير التَّغريد ، ويُشَبَّه التسبيح في ترداده بتغريده ، ومن هنا سُمّي في الشّام بالكَرِيم ، قالوا : إنّه يدعُو : ياكريم ! ياكريم !

(٢٠) الْمِقْوَلُ : اللّسان ؛ ولَسِنٌ ، أي فَصِيح .

(٢١) أي : ظَنُّ ذلك الرّجل كاليقين من ذكائه وفطنته .

٢٤	وإنْ لَغَــوا وهــــو جَليسٌ لَهُمْ	لم يَلِـجِ اللَّغـــوُ لــــهُ في أُذُنْ
٢٥	في مَلَكُــوتِ اللهِ سُبحــــانَـــــهُ	تَجـولُ ألبـــابُ لُبـــابِ الفِطَنْ
٢٦	فَهُمْ خُصــوصُ اللهِ في أرضِـــــهِ	حقّـــاً ، بِهِمْ تُــدرَأُ عَنَّـــا الْمِحَنْ
٢٧	سَمَـــوا بفَضْـــلِ اللهِ نحــوَ الّتي	مَنْ حَــلَّ في جِيْرَتِهَـــا قَـــد أمِنْ
٢٨	ونَـــزَّهُـــوا الأَنْفُسَ عَن مَنْـــزِلٍ	نـــــازِلـــــهُ مُسْتَـــوفِـــزٌ للظَّعَنْ
٢٩	وَضَمَّرُوا الْخَيـــلَ لِيَـــومٍ بِـــــهِ	يُنكَبُ مَنْ يَركَبُ فـــوقَ الهُجُنْ
٣٠	فَلَيتَني كنتُ لَهُمْ خـــــادِمـــــاً	وليتَني إذْ لم أكُنْ لم أَكُنْ !
٣١	وَمَنْ سِـوَاهُمْ فَرِجــــالٌ رَجَــوْا	أَنْ يَعْبُرُوا البَحْرَ بِغَيْرِ السُّفُنْ
٣٢	وإنّما قَصَّرَ بي عَنْهُمُ	حُبِّي لِـــــدارٍ مُلِئَتْ بــــالفِتَنْ
٣٣	لا غــارَتِ الـدُّنيـا ولا أنْجَـدَتْ	فـــالعــاقِـلُ الْحُرُّ بهـــا مُمْتَحنْ
٣٤	تَميــلُ لــلأَحمَـــقِ مِنْ أَهلِهــــا	وهيَ على عــــــاقِلِهِمْ تَضْطَغِنْ

(٢٤) وَلَجَ : دخل .

ـ واللّغوُ : سقطُ الكَلام وما لا يُعْتَدّ به مِنه .

(٢٥) الألباب : جمع لُبّ : العقل ، واللُّباب من كل شيءٍ خالصه .

(٢٦) تُدرأ : تُدفع .

(٢٨) استوفزَ : جلس على هيئةٍ كأنّه يُريد القيام .

(٢٩) في الأصل : « وسَمّروا » هكذا بالسين ، وأظنها : « وضَمّروا الخيل » من التهيئة والإعداد .

(٣٠) يقول : ياليتني إذ لم أكن خادماً لهم ، لم أكن (لم أُوجد) !

(٣٣) غار : أتى الغور . وأنجد : أتى النَّجد . والمقصود : لا كانت الدنيا !

(٣٤) انظر بيت المتنبي :

ذو العقـل يشقى في النعيم بعقلـه   وأخـو الجهالـة في الشقـاوة ينعَمُ !

الديوان ـ شرح العكبري ١٢٤/٤

ـ وتضطغن : تحمل ضغناً (حقداً) .

٣٥ يـا عَجَبـاً مِن غَفلَتي بعـدَ أنْ نـاداني الشَّيْبُ ألا فـارْحَلَنْ !

٣٦ وأَدْرِكِ الفـائِتَ مِن قَبْـلِ أَنْ يَفْجَـأَكَ المـوتُ فَـلا تُنظَرَنْ

٣٧ أَقْبَـحُ مَنْ تَرمُقُـهُ مُقْلَـةٌ مُبْصِرَةٌ، شَيـخٌ خَليـعُ الرَّسَنْ !

٣٨ تَقْتـادُهُ الـدَّهْرَ دَواعي الْهَـوى إلى الصِّبـا مِثْـلَ اقْتِيـادِ البُـدُنْ

٣٩ يـأمُـلُ آمـالَ فَتًى يـافـعٍ كأنَّـهُ ليْسَ بِشَيْـخٍ يَفَنْ

٤٠ ليسَ جَمالُ الشَّيـخِ إلاّ التُّقى والمحـوُ للسُّـوءِ بِفِعْـلٍ حَسَنْ

٤١ شُغِلْتُ بـالـوَصْفِ ولـو أَنَّني أُشْغَـلُ بـالْمَـوصوفِ كُنْتُ الفَطِنْ

٤٢ ولَمْ أَبِـعْ رُشْـداً بِغَيٍّ ولَمْ أَرْضَ بِعَقْلي مِثْـلَ هـذا الغَبَنْ

٤٣ إنَّـا إلى اللهِ لقـدْ حـاقَ بي مـا يـورِثُ الخِـزْيَ غَـداً والْحَـزَنْ

٤٤ والْحَمْـدُ للهِ فَفي كَفِّـهِ مَنْـحٌ لِمَنْ شـاءَ وفيهـا المِنَنْ

٤٥ وَهْوَ الّـذي أَرْجـو فَـإن لمْ يَكُنْ عِنْـدَ رَجـائي فيـهِ طَـوْلاً فَمَنْ ؟

---

(٣٦) أَنْظَرَه : أخَّره .

(٣٧) فلان خليعُ الرَّسن : كنايةٌ عن الاستهتار . وفي الأساس : خلَع فلان رسَنه ، وعِذاره : عَدا على النّاس بِشَرّ .

(٣٨) البُدن جمع البَدَنة : الناقة أو البقرة ، تُنحر بمكة ؛ سُمّيت بذلك لأنّهم كانوا يُسَمِّنونها .

(٣٩) اليَفَن : الشيخُ الكبير البالي .

(٤٢) كذا في الأصل : « لَمْ أَرْضَ بعقلي » . وأحرى أن يكون : أَرْضى لِعَقلي .

(٤٣) حاقَ به العَذاب (يَحيقُ) : أحاط به ونزل .

(٤٤) المِنَنُ : جمع الْمِنّة (بالكسر والضمّ) : الإحسان والإنعام .

(٤٥) الطَّوْل : الفضل والقُدرة ، ومدّ اليَد بالعطاء .

[٢٧]

وقال أيضاً ـ رضي الله عنه ـ :

[ظاهر أن الشاعر اكتفى هنا بهذه الأبيات ، فجاءت الطّاقة الشعرية في مقطوعة قصيرة ، أثارها مشهد جنازة صاحبٍ من أصحابه ، أو خبر وفاة أحدهم ، فتخيّله في جنازته .

ـ وفيها حثٌّ على الاعتبار بالموت ؛ وسخريةٌ من الإنسان الّذي أسرع إليه النِّسيان أو الّذي تبَلّد إحساسه !] .

[من الطويل]

١ تَمُرُّ لِداتي واحِداً بَعْدَ واحِدِ وأَعْلَمُ أنّي بَعْدَهُمْ غَيْرُ خالِدِ

٢ وأحْمِلُ مَوْتاهُمْ وأَشْهَدُ دَفْنَهُمْ كأنّي بَعيدٌ مِنْهُمُ غَيْرُ شاهِدِ

٣ فها أنا في عِلْمي بِهِم وجَهالَتي كَمُسْتَيْقِظٍ يَرنو بِمُقْلَةِ راقِدِ !

---

(١) اللّداتُ : جَمْع اللِّدَة : واللِّدَةُ والتِّربُ : الذي يُولد معك في وقت واحد .

(٢) يقول : يمارسُ هذه الأُمور ـ وفيها العظة ـ فلا يَتّعِظْ !

(٣) يرنو ـ مضارع رنا : أي أدام نظره إليه بسكون الطّرف .

[٢٨]

وقال أيضاً رضي الله عنه - في المدح :

[القصيدة في مدح (ابن سلمان) والثناء عليه ، والأنس به واللجوء إليه في الضرورات والملّمات (١ - ٣) .

وابن سلمان تاجٌ للملك وعون للحاكم ، شديد العزم قوي من العلماء الكبار يستحق أن يُهدى إليه الشعر وتدبّج فيه القصائد (٤) .

والشاعر يركن إليه في دفع الخطوب وتحقيق الأماني ودفع الخصوم (٥ - ٨) والممدوح كفيلٌ بحلّ كلّ مشكلة ومعضلة ! (٩)] .

[من البسيط]

١	ما تُوِّجَ الْمُلْكُ إلاّ بابْنِ سَلمانِ	ولا يَشُدُّ سِواهُ أَزْرَ سُلطانِ
٢	ما الرِّيحُ في سَيْرِها تَحكي عَزائِمَهُ	إلاّ الجيادُ إذا جَدَّتْ بأَقْرانِ
٣	كانَت جَزيرَتُنا مِن قبلُ أنْدَلُساً	فَمُذْ نشأْتَ بِها فَهْيَ العِراقانِ

(١) الأَزْرُ : القُوَّة ، والظَّهر . و : شدَّ به أزره أي قوّى ظهره ومنه آزره أي أعانه وقوّاه . وفي سورة طه [٢٠/٣١] : ﴿ واجْعَلْ لي وَزيراً مِن أَهْلي هارونَ أخي اُشْدُدْ بِهِ أزْري ﴾ .

(٢) العزائم - جمع العَزيمة - ومعنى البيت - كما تبادر لي - : إنّ عزائمه سريعةُ النَّفاذ ، لا يُشبهها في السُّرعة إلا الريح ، والجياد إذا أسرعت الْجَرْي في أرضٍ رمليّة : في أسافلها السَّهلية .

(٣) العِراقان : تَثنية العراق .

- يقول : كانت الأَندلس قبله قُطراً إسلامياً لا يُنافِسُ على زعامة أقطار الدولة العربية الإسلامية ، ولكنّ الأندلس بهذا الممدوح نافست عاصمةَ الدّولة في بغداد في العلم والأدب والثقافة وفنون الحضارة .

٤ نُهْدي إليكَ القَوافي وهيَ طَيِّبَةٌ كالرَّاحِ تُهْدى زِفافاً بَيْنَ خِلاّنِ

٥ ما لي تُلاحِظُني عينُ الْخُطوبِ وقد أَسْنَدتُ منكَ إلى رُكْنٍ كَثَهْلانِ

٦ وكَيفَ يَشْكو الصَّدى مِثْلي على مِقَتي ومـاؤكَ الغَمْرُ يَرْوي كُلَّ ظَمْآنِ

٧ أَمْ كيفَ يطمَحُ شَيْطانٌ إلى أُفقي ومِنْ سَمائِكِ يُرْمَى كُلُّ شَيطانِ

٨ بَل كَيفَ يَغمِزُني إنسانُ أَعْيُنِهِمْ وأَنتَ لي وَزَرٌ مِنْ كُلِّ إنْسانِ ؟

٩ نَبِّهْ أَبا حَسَنٍ لِلْمُعضِلاتِ ونَمْ نَوْمَ العَروسِ عَلى رَوْحٍ ورَيْحانِ

---

(٤) يقال : زفّ العروس زفّاً وزفافاً : أهداها إلى زوجها .

(٥) قوله : مالي تُلاحِظني ، كلامٌ مقلوب مقصوده : ماللخطوب تلاحظني ، وهو في كلامهم كثير .

- وثهلان : جبلٌ ، ضربه مثلاً .

(٦) الصَّدَى : العطش ، والمِقَة : الْحُبّ ، والماءُ الغَمْرُ : الكثير .

(٧) استفاد من الآية الكريمة في سورة الملك [٥/٦٨] : ﴿ ولَقَدْ زَيّنا السَّماءَ الدُّنيا بمَصابيحَ وجَعَلْناها رُجوماً للشَّياطين وأَعْتَدْنا لَهُم عَذابَ السَّعيرْ ﴾ .

(٨) يقال : غمزه بالعين والحاجب : أشار . والعبارة هنا كناية عن الاستخفاف بالشاعر أو الائتمار به .

- والوزر : الملجأ والمعين .

(٩) في الأغاني ١٨٧/٣ :

إذا دهمتك عظام الأُمور فنبه لها عُمَراً ثم نَمْ

فتًى لا يَنامُ على دِمْنَةٍ ولا يشربُ الماء إلا بدم !

والبيتان : لبشّار بن برد .

- والرَّوح : السُّرور والفَرح . والرَّيحان : النَّبات المعروف ، والرحمة والرزق .

- والْمُعْضِلات جمع الْمُعْضِلَة .

● ويرجح عندي أن ابن سلمان هذا هو أبو الحسن علي بن توبة الذي مدحه الشاعر (ينظر مثلاً القصيدة [٢٢] وحواشيها .

[٢٩]

وقـــال ـ رضي الله عنـــه ـ وقـــد رفـع أهــل إلبيرة على قـــاضيهم ابن أبي زمنين(☆) :

[يهاجم الشاعر أولئك الذين رفعوا شكوى في حق القاضي محمد بن عبد الله بن أبي زَمنين ويشمَتُ بهم فقد خاب سعيهم ولم يُقبل منهم . ويُثني على القاضي ، ويعيب على الشّاكين أنّهم لم يقدروا القاضي حقّ قدره .

وفي البيت الأخير تعبيرٌ فصيحٌ عن عبارات عامّية وعادات كانت معروفة في مثل هذه الأحوال (من التشفّي والشّماتة)] .

(☆) محمد بن أبي زمنين :

بيتُ أبي زمنين بيتٌ مشهور بالعلم والفضل ، قديم في الشهرة منهم في مدة الدولة المروانية بالأندلس : محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد بن إبراهيم المرّي المعروف بابن أبي زمنين . ولد سنة ٣٢٤ هـ وتوفي بإلبيرة سنة ٣٩٩ هـ . وقد روى عنه أبو إسحاق الإلبيري .

قال لسان الدين فيه : كان من كبار المحدّثين والعلماء الرّاسخين وأجلّ وقته في العِلم والرّواية والحِفظ للرّأي والتّمييز للحديث والمعرفة باختلاف العلماء ، متفنناً في العلم ، مضطلعاً بالأدب ، قارضاً للشعر ، متصرّفاً في حفظ المعاني والأخبار مع النُّسك والزُّهد والأخذ بسنن الصالحين والتخلّق بأخلاقهم ... إلخ .

وذكر عدداً من مؤلّفاته في التفسير ، والفقه ، والحديث والزهد وغير ذلك من الفنون .

ومن هذا البيت الشهير ، محمد بن عبد الله بن أبي زَمنين الذي ولي الأحكام وكان فقيهاً نبيهاً . وتوفّي في عشر السّتين وأربع مئة (فهو من جيل أبي إسحاق الإلبيري) . =

[من الطويل]

١	رَفَعتُمْ على قـــاضيكُمُ فَخَفَضْتُمُ	وحـاوَلْتُمُ خِـزْيـاً لَـهُ فَخَـزِيتُمُ
٢	وطالَ ـ لَعَمري ـ ماسَعِـدتُمْ بِسَعْـدِهِ	ولَـوْ أَنَّـــهُ يَشقَى إذَنْ لَشقيتُمُ
٣	ومـــا كانَ إلاّ سِترَكُمْ لَـو عَقلْتُمُ	ولكِنَّكُمْ عَن رُشْـدِكُمْ قَـد عَميتُمُ
٤	فَهـا هُـوَ ذا يَقضي على الرَّغْمِ مِنكُمُ	فَموتوا بِغَيْـظٍ واصنَعوا كَيفَ شِيتُمُ
٥	وحُكُّوا عَلى ظَهرِ الصَّعيدِ سِتـاهَكُمْ	فَلَنْ تَعْشُروه في العُلَى لَـو خَرِيتُمُ

= ـ ولم يذكر جامع الديوان اسم ابن أبي زمنين ، ولا كنيته ، ولا أشار إلى سنةٍ أو تاريخ .
ويرجح عندي أن يكون المقصود بالشعر هو ابن أبي زمنين المتوفى في عشر الستين وأربع مئة .

قلتُ : وتَرْجَم ابن بشكوال في الصلة لأبي عبد الله محمد بن أبي زمنين شيخ أبي إسحاق الإلبيري ، وقال في أثناء ترجمته إنه كان من البكّائين الورعين الخاشعين وأنه سكن قرطبة دهراً ، ثم انتقل إلى إلبيرة .

ونَقل ابن بشكوال عن الحميدي من شعره (والنص في جذوة المقتبس) .

المـوتُ في كل حين ينشُر الكفنـا	ونحن في غفلـةٍ عمـا يُراد بنـا
لاتطمئنّ إلى الـدنيـا وزُخْرُفِهـا	وإن توشّحت من أثوابها الْحَسنـا
أينَ الأحبّـةُ والجيرانُ مـافعلـوا	أين الـذين همُ كانـوا لَنـا سَكنـا ؟
سَقـاهم الـدهرُ كأسـاً غير صـافيـةٍ	فَصيّرتْهم لأطبـاق الثّرى رهنـا !

ـ وقال الحميدي : « له تواليف متداولة في الوعظ والزهد وأخبار الصالحين على طريقة ابن أبي الدنيا ، وأشعار كثيرة في نحو ذلك » .

(انظر جذوة المقتبس : ٥٣ ، والصلة ٤٨٢/٢ ، والتكملة لابن الأبّار ١٣٦/١ ، والإحاطة ١٧٢/٣)

(١) أي : رفعتم شكوى على القاضي إلى الأمير أو الحاكم ، فخفضتم من أقدار أنفسكم ، وحاولتم أن تخزوه فأصابكم الخزي وارتدت سهامكم إليكم !.

(٤) يقضي : أي يمارس مهمة القضاء (يعمل قاضياً ، لم تستطيعوا العمل على عزله) .

(٥) فلن تَعْشُروه : يريد لن تبلغوا عُشْرَ مابلغ في مَدارج العُلَى .

[٣٠]

وقال أيضاً ـ رضي الله عنه ـ :

[القطعة في العتاب الذي يرقى إلى الهجاء ؛ وفي البيتين تعييرٌ بخلف الوعد ؛ ويمكن توجيهه على معنى الضعف وعدم القُدرة على تنفيذ الوعيد ، على منهج جرير :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً ... أبشرْ بطول سلامة يا مربعُ !]

[من الطويل]

١ أَيا قَوْسَ خَرَّاطٍ يُشيرُ ولا يَرْمي ... ويا سَيفَ رِعْديدٍ يَرُضُّ ولا يُدْمي

٢ تَعَلَّمْتَ خُلْفَ الوَعْدِ مِن بَرقِ خُلَّبٍ ... فَبَرْقُكَ لا يُثري ولكنَّهُ يُعمي

(١) لم أقف على معنى « قوس خرّاط » وأظن ـ حَدْساً ـ أنه قوس النَّدّاف الذي يندفُ القطن والصوف وسواهما . شبه المندفة بالقوس ، وهو « يُشير ولا يرمي » .
والرِّعديد : الجبان يرتعد ويضطرب عند القتال جُبناً .

(٢) قوله (يُعمي) مستفاد من معنى الآية الكريمة [البقرة ٢/ ٢٠] : ﴿ يَكادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ ﴾ .
ـ يقول : من عادة البرقِ الواعد أن يكون معه مطر ، فيكون مع المطر خير ، ومن الخير النّماء والثراء ؛ ولكن برقك خُلّب (لا مطرَ معه ولا ثروة تتبعه) ولكنه برق يلمعُ فيكاد يُعمي عيون الذين يَشيمونَ (يترقَّبون) أين يُمطر سحابه .

[٣١]

وكان أبو بكر بن الحاجّ قد هجا أبا الحسن بن توبة وجماعة من الفقهاء معه ، فضربه ضرباً وجيعاً ، وطِيْفَ به على الأسواق ، فقال ابن مسعود - رضي الله عنه - في ذلك(☆) :

[في القصيدة هجاء مرّ وتشفٍّ ظاهر ، فقد تَبَنّى وجهة نظر الحكم القضائي الذي أنفذه القاضي ابن توبة في الشاعر أبي بكر بن الحاج بعد تطاوله على القاضي خاصة وعلى جماعة من الفقهاء أيضاً ، وقد وصف ضربه بالسّوط وصوّر أثره في بدنه ونفسه (١ - ٥) وعيَّره بذلك وبيّن له أن تلك العقوبة هي كفاء هجائه (٦ - ٨) وحذّره من مغبة استرساله في طول لسانه (٩ - ١١) وسرد بعض فضائل القضاة والفقهاء عامة (١٢ - ١٣) وابن توبة خاصة (١٤) وأيّد قضاءه (١٥ - ١٧)] .

(☆) أبو بكر بن الحاج

ترجم له في الإحاطة (٥١٧/٣) وقال فيه

« كان شاعراً مُجيداً ، هجا القاضي أبا الحسن بن توبة قاضي غرناطة ومن قصده من الفقهاء ، فضربه القاضي ضرباً وجيعاً ، وطيف به على الأسواق بغرناطة ، فقال فيه الكاتب أبو إسحاق الإلبيري الزاهد - وكان يومئذٍ كاتباً للقاضي المذكور ، الأبيات الشهيرة :

السوط أبلغ من قال ومن قيل ومن نباح سفيه بالأباطيل

وصورة اسمه كاملاً كما رسمت في المطبوع من الإحاطة هي أنه : عبد الرحمن بن الحاج بن القمي (؟) الإلبيري .

- والقاضي أبو الحسن بن توبة ، سبقت ترجمته في حواشي القصيدة [٢٢] وكان الإلبيري (في مرحلة من حياته) كاتباً عند ابن توبة ، وفي الديوان قصيدة في مدحه وأكثر من إشارة ثناء إليه أو دفاع عنه .

[من البسيط

١	السَّوطُ أَبلَغُ مِن قالٍ وَمِن قِيْلِ	ومِنْ نُباحِ سَفِيهٍ بالأباطِيلِ
٢	مُرُّ المَذاقِ كَحَرِّ النَّارِ أَبْرَدُهُ	يُعَقِّلُ المُتَعاطِي أيَّ تَعقِيلِ
٣	رأى مِنَ الطِّبِّ مابُقراطُ لم يَرَهُ	في بُرءِ كُلِّ سَخِيفِ العَقْلِ مَخْذولِ
٤	ضئيلُ جِسْمٍ تَخافُ الخَيلُ سَطْوَتَهُ	أَعْدَى وأَطْغَى مِنَ التِّمساحِ في النِّيلِ
٥	يُرَقِّصُ المَرءَ تَرقيصاً بِلا طَرَبٍ	لو كانَ أثقلَ أو أجْسَى مِنَ الفِيلِ
٦	عِندَ السَّخِيفِ بِهِ خُبْرٌ وتَجْرِبَةٌ	فقَد رمَى تَحتَهُ ماعُدَّ بالفُولِ
٧	وقد حَسَا مِنهُ أَمْرَاقاً مُفَلْفَلَةً	جشَّتْهُ شرَّ الجُشَا مِنْ شَرِّ مأكُولِ

(١) ظاهر أنَّ القاضي أمر بتعزير الشَّاعر الهَجَّاء ابن الحاج والتَّشهير به . والسَّفيه : الجاهل ، والضَّعيف : الأحمق الذي يُسافِهُ النَّاس ويُشاتِمُهم .

(٢) يعقل المتعاطي : أي يرد إلى متعاطي الهجاء ومذيعه بين الناس إلى عقله (يُحسِّن سلوكه بتلك العقوبة) .

(٣) بُقراط ، ويقال فيه إِبُقْرَاط ، طبيب يوناني يُعرف بأبي الطِّب . ولد سنة ٤٦٠ ق.م وتوفي سنة ٣٧٠ ق.م

ويُضرب به المثل ـ عند العرب ـ في المعرفة بالطب .

(٤) هذا البيت في صفة السَّوط

ـ والتمساح حيوانٌ معروف ، وهو أكبر الزَّواحف . وضَرب مثلاً بالتمساح لشراسته وسرعته . وتمساح النيل نَوعٌ من جنس التمساحات Crocodile وهو يألف المنطقة الممتدة من إفريقية الجنوبية إلى نهر النيل .

(٥) جَسا يَجْسُو جسوّاً : صَلُب .

أي هو سوط يرقّص من يناله منه الضرب وإن كان صلباً أو ثقيلاً كالفيل !

(٦) السَّخيف : هو المهجو أبو بكر بن الحاج .

(٧) الْجُشاء : تنفّس المعدة عن شِبَعٍ أو بَشَم . وجشّأَهُ : حمله على التجشّؤ .

٨ وقَـد هَجَـاهُ بِهَجْـوٍ مُـؤلِمٍ وَجـعٍ لا يُشْبِـهُ الشِّعْرَ في نَظْمٍ وتَفْصيـلِ

٩ فَقُـلْ لَـهُ إنْ جَرَى هَجْـوٌ بِخـاطرِهِ أُذكُرْ قِيـامَـكَ مَحْلـولَ السَّراويـلِ

١٠ واذْكُرْ طَوافَكَ في الأسواقِ مُفْتَضِحـاً مُجَرَّداً خـاشِعـاً في ذُلِّ مَعْـزُولِ !

١١ واذْكُرْ عقـوبـةَ مـا زَوَّرتَـهُ سَفهـاً في السَّـادَةِ القـادَةِ الشُّمِّ البَهـاليـلِ

١٢ عصـابَـةٌ عَظَّمَ الرَّحْمنُ حُرمَتَهـا وخصَّهـا منْـهُ إكْرامـاً بِتَبْجيـلِ

١٣ هُمُ لُبَـابُ الـوَرَى حقّـاً وغَيْرُهُم عنـدَ الْحَقيقَـةِ أَبْقـالُ الغَرابيـلِ

١٤ إنَّ ابْنَ تَـوْبَـةَ فيهِمْ رافِـعٌ عَلَمـاً مِنَ القضـاء ومُمْتـازٌ بـإكليـلِ

---

(٩) حُلَت سراويلُه ليباشِرَ السَّوطُ جَسَدَه (ليتمكّن الجلاّد من الْجَلْد) .

(١٠) يضرب المثل في الذل بذُلِّ العَزْل ؛ قال الثعالبي في المضاف والمنسوب ٦٧٥ كان بعض الولاة يقول : لا يقومُ عِزّ الولايـة بِذُلِّ العَزْل ! أي تمتلئ النفس من ذلّ العزل بأكثر مما تمتلئ من فرح التولّي (فالمعادلة غير مجبورة !) .

وقال ابن المعتز :

وذُلّ العَـزْلِ يَضْحَـكُ كلّ يـوم وَيَضْرِب في قَفـا الـوَالي الْمُـدِلِّ !

(١١) الشمّ جمع أشمّ ، والشَّمَمُ : ارتفاعُ قَصبة الأنف وحسنها واستواء أعلاها ، ويُكَنى بذلك عن ارتفاعِ المكانة والإباء .

ـ والبَهاليل : جمع البُهلول : السيِّد الجامع لكل خير ، والْحَيِيّ : الكريم .

(١٢) العصابة في اللغة : الْجَماعة . وقصد هنا : جماعة القضاة والفقهاء .

(١٣) أوردها في المطبوع (أبعال) وأشار في الحاشية إلى قراءة أخرى هي (أثفال) وقرأتُها هكذا (أبقال) ؟

ويريد بأبقال الغرابيل ، ما يخرَج عن الحبّ من سواقط أُخرى كالزُّؤان والشّيلم والشُّوفان وغيرها .

(١٤) الإكليل : التاج .

١٥ قَضَى بِتَنْكِيـــلِ مَنْ لم يَرْعَ حَقَّهُمُ   وحَصَّنَ الْحُكْمَ في هــذا بِتَسْجِيــلِ
١٦ الظَّهْرُ قِرطـاسَـةُ والسَّـوطُ يَطْلُبـهُ   بِئْسَ الكِتـابُ بِعَقْـدٍ غَيرِ مَحْلُولِ !

---

(١٥) نكَل به : جعله نَكالاً وعبرة لغيره ؛ وعاقبه عقاباً يحذَرُ غيرُه منه إذا رآه .

(١٦) أي يطلبه مرةً بعدَ مرّةٍ للضَّرب . وجعل الشـاعر الضرب بـالسَّوط على الظهر كالكتـابـة على القِرطاس (الورق) : فكلاهما تسجيلٌ لتلك العقوبة على وَجْهين اثنين !

[٣٢]

قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ:

سافرتُ مع القاضي أبي الحسن بن تَوبة في رسالةٍ إلى الوزير أحمد بن عباس فوجدناه مشتغلاً ، فكتبت إليه هذه الأبيات(☆) :

[القطعة أبيات مرتجلة في مناسبة عارضة . وفيها تقريظ للوزير يدخل في باب المُجَاملة . والقطعة أشبه ماتكون بالبطاقة القصيرة العارضة] .

(☆) ـ القاضي الفقيه أبو الحسن بن توبة ؛ سبقت ترجمته في القطعة [٢٢] .
ـ والوزير الكاتب أبو جعفر أحمد بن عباس ، كان كاتباً في دولة زهير الصقلبي صاحب المرية وقد وصفه ابن حيّان مؤرّخ الأندلس بقوله « كان حسن الكتابة ، مليح الخط جيّد الخطابة ، غزير الأدب ، قوي المعرفة ، شارعاً في الفقه مشاركاً في العلوم ، مقتبساً للشعر من غير طبع فيه ، حاضر الجواب ذكي الخاطر » وقال ابن بسام إن أبا جعفر قد بذّ أهل زمانه في أربعة أشياء : المال ، والعُجب ، والبخل ، والكتابة . وقد أنحى الأمير عبد الله بن بلقين (آخر أمراء بني زيري ـ حكام غرناطة ـ في مدة دول الطوائف) على أحمد بن عباس على هذا بلوم شديد وقال فيه « وكان له ـ يعني زهير العامري ـ كاتبٌ يعرف بولد عباس من أشد الناس حماقة واستخفافاً ، مُثيراً للشرّ مؤرّشاً بين المُلوك (أي مُثيراً للفتن بينهم) ، وكان الغالبَ على أمرِ زهير » ...
وقد أسره باديس بعد هزيمة جيش زُهير ومقتله ؛ وبعث ابن جهور صاحب قرطبة إلى باديس في استبقاء ابن عباس والعفو عنه ؛ فلم يسمع منه وقتله سنة ٤٢٩ .
(ترجمته في الذخيرة لابن بسام المجلد الثاني ـ القسم الأوّل : ١٥١ والتبيان للأمير عبد الله بن بلقين ٣٤ والمغرب لابن سعيد : ٢٠٥/٢) .

[من السّريع]

١ أيــا وَزيراً لَمْ يَـزَلْ آخِــذاً عنـدَ الْمُلِمّـاتِ بِـأَيْـدِينـا

٢ وسيِّــداً نَحكُمُ في مـالِــهِ وجـاهِـهِ النّـامِي بِما شِينـا

٣ أراكَ مَشغـولاً بِكَسْبِ العُـلاَ وحـارِسـاً دُنْيَـاكَ والـدِّينـا

٤ فـاجْعَلْ مِنَ اللَّيـلِ لنـا سـاعَـةً يَحْكُم فِيهـا مـالَـهُ جِيْنـا

٥ ولا يكنْ يَحضُرنـا ثـالثٌ فَرُبّما الثّـالِثُ يـؤذِينـا!

قال : فاجتمعنا معه وقَضينا الرّسالة وانصرَفنا

انتهى المجمـوع من شِعر الفقيـه الـزاهـد أبي إسحـاق التُّجيبي الإلبيري ، رضي الله عنه ، ونفعه ، وتقبَّل منه

وكتب عبـد الله الفقير إليـه سبحـانـه حَكَم بن يـوسف بن حكم البَلنْسِيً ـ وفقـه الله ـ بثغر مَنُرْقـة ـ كـلأه الله ـ في منتصف ذي الحجـة سنـة ست وسبعين وست مئة ، والحمد لله كما هو أهله

المستدرك

على ديوان الإلبيريّ

[٣٣]

قال الإلبيري

[هذا المقطع هو الجزء الباقي من قصيدة مفقودة : استشهد به الشَّريشي (الأندلسي) شارح مقامات الحريري في أثناء شرح المقامة السمرقندية ؛ في استطراده إلى ذكر ذهاب الأمم والاعتبار بصنائع الأيام .

ذكرَ الشاعر كثيراً من مَتاع الدُّنيا من الذهب والمال والأسلحة المختلفة ومن الخيل العِتاق (١ ـ ٣) وذكر تقلّب مَنْ خَلا في تلك النعم مع القُوّة والبأس ولكن حكم القضاء الحتم جاء عليهم . وكل شيءٍ هالك إلا وجهه (٤ ـ ٥)] .

[من الكامل]

١ أَيْنَ الْمُلوكُ وأَيْنَ مَا جَمَعُوا ومَا ذَخَرُوهُ مِنْ ذَهَبِ الْمَتاعِ الذَّاهِبِ

٢ ومِنَ السَّوابِغِ والصَّوارِمِ والقَنَا ومِنَ الصَّواهِلِ بُدّنٍ وشَوازِبِ

٣ كانت سوابِقُها تحمّل مِنْهُمُ أَقْمَارَ أَنْدِيَةٍ وأُسْدَ كَتَائِبِ

(١) جانس الشاعر بين الذَّهب (المعدن الثَّمين) والذّاهب : (اسم الفاعل من ذَهَبَ) .

(٢) السّوابغ : جمع سابغة : الدروع ، والصوارم : السُّيوف . والقنا : جمع القناة : الرُّمح ، والصَّواهل : جمع صاهل : الفرس . والبدن : جمع بادن : الْجَسِيم . والشوازب : جمع الشازب : الضامر .

(٣) أي الخيل السَّوابق ، فهم يتخيرون الخيولَ الكريمة .

٤ كانُــوا لُيُــوثَ خَفِيَّــــة لكِنَّهُمْ سَكَنُـوا غِيــاضَ أسِنَّــةٍ وقـواضِبِ

٥ قَصَفَتْهُم ريـــــحُ الرَّدَى ورَمَتْهُمُ كَفُّ الْمَنُـونِ بِكُـلِّ سَهْمٍ صـائِبِ

---

(٤) غِياض : جمع غَيْضة : مجتمع الشجر في مَغِيض ماء ؛ والأجمة .
وأوردها الشّاعر هنا على الْمَجاز ؛ يقول : كانوا في حماية الأسِنّة (الرِّماح) والقَواضب (السيوف ؛ جمع قاضب) . جعل ذلك السلاح كالغَيْضَة ، ثم إنّها تحمي مَنْ فيها .
ـ وخَفِيَّة : اسم مكان ؛ يقال لُيوث خَفية ؛ نسبة إلى ذلك المكان ، كما يُقال : أُسْدُ شَرَى .
وفي شعر الأشهب بن رُمَيلة (أمالي القالي : ٨/١) :

أُســودُ شَرَى لاقت أُســودَ خَفِيّــةٍ تَســاقَوا على حَرْدٍ دمـاءَ الأَســاوِدِ

[٣٤]

وقال الإلبيري :

[الأبيات من قصيدة مفقودة ، فيها لوم لأهل زمانه ممَن أخطأه الموت وكانَ على غير التُّقى وغيرِ الْخُطَّة الْمَرْضِيَّة . وفيها رثاءٌ عامّ لأصحابه وأصدقائه مِمَّن اتّصف بالتَّقْوى وصِدق الْمَودّة ؛ وفيها رثاءٌ لنفسه بعد أن ماتَ عنه أكثر أترابه ولِداته] .

[من المتقارب]

١	فإنَّ الرَّدَى غالَ أَهْلَ التُّقى	فلم يَبْقَ إلاّ الغَشومُ العَنيدْ
٢	وأَوْدَى بِكُلِّ خَليلٍ وَدودٍ	فَأينَ ـ ولا أَينَ ! ـ خِلٌّ وَدودْ ؟
٣	وكَمْ مِنْ أَخي ثِقَةٍ قد لَحَدْتُ	فَلِلّهِ ما غَيَّبَتْهُ اللُّحودْ
٤	وأَثْكَلَني الأُنْسَ ثُكْلُ اللِّداتِ	فَصِرْتُ كأنّي غَريبٌ وَحِيدْ
٥	وكَمْ مِن شَقِيٍّ يُوارَى التُّرابَ	وكَمْ مِنْ سَعيدٍ يُوارَى الصَّعيدْ !

---

(١) الغَشوم : صيغة مبالغة اسم الفاعل من غَشم الوالي الرعيّةَ : ضَبطهم بعسفه وأخذ كل ما قدر عليه وأراده .

والعنيد من عَنَد : عتا وطغا وتجاوز قدره ؛ وعَنَد أيضاً : خالَف الحقَّ وردّه عارفاً به .

(٢) وَدود : صيغةُ مبالغة اسم الفاعل من وَدّ : أحبّ .

(٣) لَحَد الميّتَ : دفنه . واللُّحود : جمع لَحْد .

(٤) اللِّداتُ : جمع اللِّدَة ـ وهو التِّرْب (الموازي في العُمر) .

(٥) الصَّعيد : التُّراب والقبر .

[٣٥]

وقال الإلبيري :

[ظاهرٌ أنّ الأبيات قطعة تامّة أنشدها الشاعر على هذه الحال .
وفيها استسلامُ العبْد الْمُؤمن لله تَعالى وتسليمٌ لحكمه وقضائه ، ودعاءٌ بالعَفو والْمَغفرة] .

[**من البسيط**]

لا قُوَّةٌ لِيَ يا رَبِّي فَأَنْتَصِرُ ... ولا بَراءَةَ مِنْ ذَنبي فَأعتَذِرُ
فَإن تُعاقِبْ فَأَهلٌ للعِقابِ وَإنْ ... تَغفِرْ فَعَفوُكَ مَأْمولٌ ومنتَظَرُ
إنَّ العَظيمَ إذا لم يَعْفُ مُقْتَدِراً ... عَنِ العَظيمِ فَمَنْ يَعْفو ويقتَدِرُ؟

---

(١) كأن المعنى أنه : لا قوة له غالبة فيمنع نفسه من بعض مَيلها وهَواها فينتصر عَليها ، فهو لهذا صاحبُ ذَنب ؛ فهو ـ أيضاً ـ غير بريء (غيرُ خالٍ) من الذُّنوب ؛ ولو كان خالياً من الذنوب لكان عُذره عند الحساب واضحاً !

(٢) مأمول : مَرْجُوّ .
يقول : إن نالته عقوبةٌ من الله تعالى فبذنوبه وبما يستأهل به العقاب ...

(٣) عن العظيم : أي عن الذّنب العظيم .

[٣٦]

وقال الإلبيري :

[قَـدَّم المقّري ـ في إحـدى نسـخ نفـح الطيب لهـذه الأبيـات (٣١٨/٤) ـ بهذه العبـارة : « قـال الإلبيري في تِيـه الغنيِّ بغنـاه ، وهـو كَلا شيء في عُقباه » .

ويظهر لي أن الأبيات هي قطعةٌ وافية ، لا جزءٌ من قصيدة وهي في الاعتبار بالغنيّ الذي يَغُرّه مالُه ويَظُنّه خالداً لـه ثم تَقْلِبُ لـه الأيّـام وجهها ؛ وفيها تحذير من الرُّكون إلى الغنى ، وتبيانُ ما يكفي بني آدم في دنياهم وهو الكفاف . وأية حاجـة للمرء بما يَفوق كَفافـه ؛ وكَفافُـه هو كِفايَتُه أيضاً ؟!] .

[من المنسرح]

١	وَذي غِنى أَوهَمَتْـــهُ هِمَّتُـــهُ	أَنَّ الغِنَى عنـــهُ غيرُ مُنفَصِـــلِ
٢	فَجَرَّ أذيـــالَ عُجْبِـــهِ بَطَراً	واختـــالَ للكِبْرِيـــاءِ في حُلَـلِ
٣	بَـزَّتْـهُ أَيْـدي الْخُطـوبِ بِـزَّتَـهُ	فـاعتـاضَ بعدَ الْجَـديـدِ بـالسَّمَـلِ

(١) غير منفصل عنه : أي غيرُ خارج عنه ؛ وغير مُفارقٍ إيّاه .

(٢) البَطَرُ : مصدر : بَطِر أي : طَغى عند النُّعمى وطولِ الغنى .

(٣) بزَّه الشيء : انتزعه وأخذه بجفاء وقَهر ، والبَزُّ : الثياب .

ـ والسَّمَل : اسمٌ من سَمَل ، وسَمِلَ الثوبُ : أَخْلَق وبلي فهو خَلَقٌ بالٍ .

٤ فـلا تَثِـقْ بـالغِنَى فـآفَتُـهُ الـ ـفَقرُ، وصَرْفُ الـزَّمـانِ ذو دُوَلِ

٥ كفَى بِنَيـلِ الكَفـافِ منـهُ غِنًى عنـهُ فَكُنْ فيـهِ غَيرَ مُحتَفِـلِ!

---

(٤) من القول الشائع : آفَة الغِنى الفَقْر .
ـ وصَرْفُ الزَمان : واحد صروفه وهي حوادثه ونوائبه .
ـ (ذو) دُوَل : جمع دولة ، والدّولة : انقلابُ الزمان من حـال بُؤس وضُرّ إلى حـالـةِ غِبطـة وسُرور ؛ (والعكس) .

(٥) الكفاف من الرّزق : ماأغنى عن النّاس : ليس فيه فضلٌ (زيادة) ولا نُقصان .
ـ وقولُ الشّاعر : كفى بنيل الكَفاف منه : أي من المال .

[٣٧]

وقال - عفا الله عنه - مبتهلاً إلى مولاه

[هذه الأبيات وحدة تـامّـة : وفي النّص ابتهـال ورجـاء واعتراف بالتقصير ، وتلوّم ذاتي ، ورغبة ملحة في طلب العفو والمغفرة] .

[من الوافر]

١ أَتَيْتُـكَ راجِيـاً يـا ذا الْجَـلالِ ... فَفَرِّجْ مـا تَرَى مِن سـوءِ حـالي

٢ عَصَيْتُـكَ سَيِّـدي - وَيلي - بِجَهلي ... وعيبُ الـذَّنبِ لم يَخطُرْ بِبـالي

٣ إلى مَنْ يَشْتَكي الْمَملـوكُ إلاّ ... إلى مَـوْلاهُ يـا مَـوْلى الْمَـوالي

٤ لَعَمْري ليتَ أُمِّي لم تَلِـدْني ... ولم أُغضِبْـكَ في ظُلَمِ اللَّيـالي

٥ فهـا أَنـا عَبْـدُكَ العـاصي، فَقيرٌ ... إلى رُحمـاكَ فـاقبَـلْ لي سُـؤالي

٦ فَـإن عـاقَبْتَ يـا رَبِّي تُعـاقِبْ ... مُحِقّـاً بـالعَـذابِ وبـالنَّكالِ

٧ وإنْ تَعْفُ فَعَفْـوُكَ قَـدْ أَراني ... لأَفْعـالي وَأَوزاري الثِّقـالِ !

---

(٦) النَّكال : العقاب أو النازلـة ؛ وفي التنزيل العزيز : ﴿ فجَعَلْنـاهـا نكالاً لِما بَيْنَ يَـدَيْهـا ومـا خَلْفَها ﴾ [البقرة ٦٦/٢] . و : ﴿ جزاءً بِما كَسَبا نكالاً منَ الله ﴾ [المائدة ٣٨/٥] .

[٣٨]

وقال الأُستاذ الزاهد أبو إسحاق الإلبيري الغرناطي رحمه الله تعالى :

[تدور الأبيات حول حقيقة الموت وعدم الخلود في الدُّنيا وأنَّ الإنسان : يتناقص عمره كلَّ يوم .

فهي : تنبيهٌ وتحذير .

وفي البيت الأول شطران كلَّ منهما مستقل بمعنى من الحكمة فالإنسان كما يدين يُدان ، والله تعالى في كل مكان وهو لا يحدّه مكان ولا زمان (١) والدُّنيا فانية يعمُرها الإنسان قليلاً ويمضي سريعاً (٢ ـ ٣) ويقول : كيف أُسَرّ بمرور كل يوم وإنما هو يأخذ من رصيد عُمري ؟ (٤)] .

[من الكامل]

١ كُلُّ امرئٍ فِيما يَدينُ يُدانُ   سُبحانَ مَنْ لَمْ يَخْلُ منهُ مكانُ

٢ يا عامِرَ الدُّنيا لِيَسْكُنَها وما   هِيَ بالّتي يَبْقى بِها سُكّانُ

---

(١) يقال : دِنْتُ فلاناً بما صنع : أي جزيته .

ـ وفي المثل « كما تدين تُدان » ؛ وهو في أمثال العسكري ١٦٨/٢ ، وشرحه : أي كما تَفعَل يُفعل بك . والدِّينُ : الجزاء .

(٢) يختلف هذا الكلام عن قول أبي العتاهية :

لِدوا للموت وابنوا للخراب   فكلكم يصيرُ إلى يباب !

فكلامُ العَبّاسي فيه تيئيسٌ ونظرةٌ سَوداويّة ، وفي كلام الأندلسي : تحذير من الانغماس في الدُّنيا ولفتٌ رفيقٌ بعبارةٍ لطيفة .

٣ تَفْنَى ، وتَبْقَى الأَرْضُ بَعْدَكَ مِثْلَما يَبْقى الْمُنَاخُ وتَرْحَلُ الرُّكْبانُ

٤ أَأُسَرُّ في الدُّنيا بِكُلِّ زِيادَةٍ وزِيادَتي فيها هِيَ النُّقْصانُ !

---

(٣) الْمُناخ : مَبْرَكُ الإبل . والرُّكبان جمع راكب وهو الذي يعلو ظهر البعير وغيره وتقال في راكب أيّة وسيلة وتجمع على : ركّاب ورُكبان ورُكوب ورَكَبَة ورِكَبَة .

(٤) هذا الْمَعنى مُتَداول ، وأشهر من تناوله أبو الفَتح البستي في قصيدته المشهورة (ديوانه : ٣١٣) :

زيادةُ المرءِ في دُنياه نقصانُ وربْحُهُ غير محض الخير خسْرانُ !

[٣٩]

قال الإلبيري(☆) :

[يتوجه الخطاب في هذه الأبيات إلى الْمُستغرق في الدّنيا المشغول عن الآخرة الذي لا يحسب حساب اليوم الموعود : آخر ساعة من ساعات الحياة الدُّنيا ، وأوّل ساعة من زمن الآخرة : الموت (١ ـ ٢) .

فَسرعانَ ما يَفجأ الموت ذلك اللاّهي النّاسي المغتر بالدُّنيا فيبكيه أهله ساعة أو ساعات ويوارونه التّراب ثم يقتسمون ماأفنى حياته في جَمعه ! (٣ ـ ٥) .

ويدعو الإنسان إلى اليقظة والحذر وإلى أن يحسب حساب الموت ، والآخرة التي وراءه (٦ ـ ٧)] .

[من مخلّع البسيط]

١ كَمْ آمِنٍ للْمَنُونِ لاهٍ عَنِ الرَّدَى بَاتَ مُطْمَئِنَّا
٢ صَبَّحَهُ وافِدُ الْمَنَايَا فَعَايَنَ الْمَوْتَ حينَ عَنَّا

(☆) استطرد الشريشي في شرح المقامات إلى ذكر المقابر وأورد نماذج من شعر الزُّهّاد والعُبّاد في ذلك وأورد شعر الإلبيري هذا ، وروى في شرحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه « قال رسول الله ﷺ : أكْثِروا من ذِكر هادم اللذات . قالوا : وما هادم اللذات ؟ قال : الموت » قال الشَّريشِيّ : وقال الإلبيري في معنى ماتقدّم : الأبيات ....

(١) لَها عن الشيء : غفل عنه ، وترك ذِكره ، وأضرب عنه .

(٢) صَبّحه : أتاه مع الصَّباح .

وعاين الموت : رآه عِياناً (صار حقيقة ماثلة) .

و : عَنّ الشيء يَعِنُّ : ظَهر أمامك واعْتَرض .

٣ حتّى إذا ماقضى بَكاهُ حَميمُهُ مُعْوِلاً مُرِنّا

٤ وارَوْهُ في لَحْدِهِ وسَنُّوا عليهِ قيدَ التُّراب سَنّا

٥ وانتهَبوا مالَهُ وشنُّوا الـ ـغاراتِ فيما حَواهُ شَنّا

٦ لِمْثلِ هذا فكُنْ مُعِدّا ماقدْ أَعَدَّ الْهُداةُ مِنّا

٧ وارْتقِبِ الْمَوتَ فهوَ حَتْمٌ يَخْتَرِمُ الطِّفْلَ والْمُسِنّا

---

(٣) الحميم : الصّديق تودُّه ويوَدُّك .

الْمُعْوِل : اسم فاعل من أعْوَل : رفع صوته بالبُكاء والصياح .

الْمُرِنّ : اسم فاعل من أرنّت المرأة في نَوْحِها .

(٤) قيد التراب : كذا في مطبوع الشّريشي على الْمَقامات . وكأنه : هَيْل التراب ؛ والْهَيْل : ماانهار وانصبّ من الرمل وغيره .

(٥) شن الغارة عليها : بثّها وفرّقها من كل وجه .

(٧) اخترمَتْه المنية : أخذتْه .

التَّخْريج والرّواية

[١]

ـ البيت الأول في الروض المعطار في خبر الأقطار : ٢٩
ـ الأبيات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ في ألف باء للبلوي ٢٥/١
ـ الأبيات ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٣٤ ، ٣٥ على هذا الترتيب في ألف باء ٣/١

[٢]

في التخريج :

في شرح المقامات الحريرية للشريشي الأبيات : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٧ غير معزوّة : وحلاّها بعبارة « وقال آخر » .

في الرواية :

١ : تلاحظني .
٢ : فيه طيٌ .
٥ : أزال .... يا صاحي .
٦ : وبدّلت التّكاسل .

[٤]

البيت الأول في الروض المعطار للحميري : ٣٠

[٥]

التخريج :

في إحدى نسخ نفح الطيب للمقري ٨٦/٤ أن الإلبيري « قال هذه القصيدة في علماء السوء » .

وقـد أورد المقري في النفـح ٨٦/٤ و ٣١٨/٤ الأبيـات ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٠ وفي البيت ١٥ : ويذيله (بالذال المعجمة) .

- وفي أخبار وتراجم أندلسية (مستخرجة من كتاب السفر للسلفي) ص ١٣٥ الأبيات : ١٤ ، ١٥ ، ٢٣

- وفي شرح مقامات الحريري للشريشي ٣٨٥/١ وردت الأبيات ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٠ وفيه (٧٦/٢) الأبيات ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٠

الرواية :

رواية الشريشي :

٢٣: قطف البلاد .... قد كان يعمرها

٢٩: ولطالما كانوا .

[٨]

التخريج :

في نفح الطيب للمقري ٣١٨/٤ الأبيات ١ ومن ٣ - ١١

وفي شرح المقامات للشريشي ٢٧٤/٢ الأبيات ١٥ ، ١٦

الرواية :

رواية نفح الطيب :

٣: وأخدع بالمنى .

٤: مفلول الشبا .

٧: أن يشتهي .

٨: ضحك الجهول .

٩: تنبهه .

[١٠]

التخريج :

في شرح مقامات الحريري للشريشي ١٨٢/١ الأبيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥

الرواية :

رواية الشريشي :

١ : وقد رم رحلي (بالراء المهملة) .

٥ : وكم وارد فيها .

[١١]

التخريج :

في الروض المعطار (٢٩) الأبيات ١ ، ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥

وفي ١٥ : ويحك فتى .

الرواية :

في الأصل المخطوط : يبيع ما يفنى ؛ ولعل الصواب ماأثبت ، وقد أثبتها كذاك في المطبوع ولم ينبه إلى رواية الأصل المخطوط .

[١٢]

التخريج :

في نفح الطيب ٢٤٥/٤ ـ ٣٤٦ الأبيات ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧

الرواية :

رواية النفح :

٥ : وجلالة فبدالها .

٧ : لما انتهوا بجفونهم .

[١٣]

التخريج :

القصيدة في الإحاطة في أخبار غرناطة (٣١٧/٤ ـ ٣١٨) ومنها في الْمُغرب في حُلى الْمَغرب لابن سعيد (١٣٣/٢) الأبيات ١ ، ٤

وفي نفح الطيب (٤٩١/٣) الأبيات ١ ، ٤ أيضاً .

الروايات :

١: في المغرب ، والنفح والإحاطة : تستجيد

٢: في المغرب والإحاطة : ماذاكُم ؟

- في النفح : صواباً .

٤: في الإحاطة : يبتغين كنّاً .

٥: في الإحاطة : ليس لسكانه .

٧: في الإحاطة : مالك عن .

[١٤]

التخريج :

أورد ابن سعيد في المغرب (١٣٣/٢) الأبيات ١ ، ٢ ، ٨ ، ٩

الرواية :

رواية المغرب :

١: خوف الذّباب .

٢: وعاقبتها بأشد العقاب

٨: فكم وعدتني .

[٢٢]

التخريج :

- في الإحاطة الأبيات من ٢٧ إلى آخر القصيدة عدا البيت ٣١

- وفي صلة الصلة البيت ٢٧

[٢٤]

التخريج :

في شرح المقامات للشريشي ٢٠٤/٢

الأبيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٥

الرواية :

رواية الشريشي :

١ : وخطت بليلي ؛ تأهبي للرحيل .

٢ : فما للشيب .

٣ : أصابك طلها .

٥ : بنور الشيب .

وفيه أيضاً ١١٢/١ البيت العاشر ، ونصه فيه :

فـلازم قرع بـاب التـوب دأبـاً فـإن لـزومـه سبب الـدخـول

[٢٥]

التخريج :

القصيدة في أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب (١٣٢ ـ ٢٣٣) عدا الأبيات : ١١ ، ١٣ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢٣

ـ ومنها في نفح الطيب الأبيات ١ ، ١٥ ، ٢ ، ٣ ، ٤ على التوالي المذكور .

ـ ومنها في المغرب في حلى المغرب (١٣٢/٢) الأبيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤

الروايات :

١ : في أعمال الأعلام ، والنفح ، والمغرب : بُدور الزمان .

٢ : زاد في أعمال الأعلام ـ وانفرد بهذه الزيادة ـ بعد البيت الأول :

مقـــالـــةَ ذي مقـــةٍ مشفـقٍ يعـــدّ النَّصيحـــة زُلفى ودين

٣ : في المغرب والنفح : أَقَرَّ بها .

٤ : في أعمال الأعلام والنفح : من المؤمنين .

٥ : في المغرب : وَكانوا من الفترة الأرذلين .

٦ : في أعمال الأعلام : وقد جاز ذلك وما يشعرون .

٧ : في أعمال الأعلام : فكم مسلم فاضلٍ قانتٍ .

[٢٧]

التخريج :

الأبيات في التكملة لابن الأبار ١٣٦/١ ـ ١٣٧ وهي في النفح ١١٣/٤

الروايات :

في التكملة لابن الأبار :

٢ : بعيد عنهم .

قال ابن الأبار : ولو قال في البيت الثاني : « كأني عنهم غائب غير شاهد » لكان أبدع وأبرع في الصناعة الشعرية .

ـ وفي النفح :

٣ : علمي لهم .

ونقل المقّري في النفح نقد ابن الأبّار بعبارته .

[٣١]

التخريج :

أورد في الإحاطة (٥١٧/٣) البيتين الأوّلين .

الرواية :

في الإحاطة :

١ : من قول ومن قيل .

٢ : محرف ومصحف .

[٣٣]

التخريج :

القطعة في شرح مقامات الحريري للشريشي ٦٦/٢ في أثناء شرح المقامة السمرقندية وعند استطراد المؤلف لذكر ذهاب الأمم .

الرواية :

١: في شرح المقامات : (دخروه) بالدال المهملة .

٢: في شرح المقامات : (شوارب) بالراء المهملة .

٣: في شرح المقامات : ليوت حقيبة .

[٣٤]

التخريج :

في شرح مقامات الحريري للشريشي ١٧٨/١

الرواية :

١: في شرح المقامات : (غلّ) بدلاً من غال وأرجّح ماأثبت بقرينة المعنى ؛ (وانظر الشطر الثاني) .

- وفيه (العتيد) بالتاء المثناة وأرجح النون .

[٣٥]

التخريج :

في الإحاطة (مخطوطة برلين) نقلها دوزي وأوردها محقق المطبوع من الإلبيري .

[٣٦]

التخريج :

القطعة في شرح المقامات للشريشي ٣٠/٢ في أثناء شرح المقامة الكرجية ، عند استطراد الشارح إلى حديث الغنى والفقر .

- وفي نفح الطيب ٣١٨/٤

[٣٧]

التخريج :

في نفح الطيب للمقري ٣١٧/٤

[٣٨]

التخريج :

في نفح الطيب ٢١٧/٤

وشرح المقامات ٣٢١/١

الرواية :

٢ : في شرح المقامات (يبقى لها) .

[٣٩]

في شرح مقامات الحريري للشريشي ١٨٠/١ وفي شرحه للمقامة الساوية .

فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ش)

(ص)

(ص)

(ع)

(غ)

(ق)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(ي)

(و)

فهرس القوافي

(قافية الهمزة)

(قافية الباء)

(قافية التاء)

(قافية الحاء)

(قافية الدال)

(قافية الراء)

(قافية الزاي)

(قافية الفاء)

(قافية الكاف)

(قافية اللام)

(قافية الميم)

(قافية النون)

(قافية الهاء)